تأديبُ اللهِ ـ تعالى ـ المؤمنينَ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ

"دراسةٌ موضوعيةٌ على ضوء السُّور المدنية"

د. محمّد بن ناصر بن يحيى جَدُّه

قسم الثقافة الإسلامية– جامعة جازان– المملكة العربية السعودية

المُلخَص

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه ، ومَن سار على نهجه واتبع هداه ، وبعد :

فإنَّ النبيَّ صاحب الحقّ على أُمته بما أرشدها به وهداها إلى المحجة البيضاء، وبما دلّها به على ربّها ومولاها؛ ومن ثَمَّ فإنَّ له على أُمته حقوقًا عديدة أدبية ومعنوية ومادية حال حياته وعلى صحابته البررة، وبعد موته على مَن أتى بعدهم مقتفياً نهجهم الأمثل، وهذا البحث المعنون بـ« تأديب الله تعالى المؤمنين في خِطَابِ النَّبيِّ دراسة موضوعية على ضوء السُّور المدنية»، يستجلي طرفًا من هاتيك الحقوق للنبيّ الأكرم على جميع الأُمّة قديمًا وحديثًا من ناحية خطابها معه كيف يكون: الحدود، والمظاهر، والمضامين، والآليات، حاول الباحث فيه استجلاء دلالات النصّ القرآني في بيانه لحقوق النبي في كثير من الميادين الحياتية، وتوجيهه لأهل الإيمان أن يتنبّهوا للمظاهر التي ينبغي أن يحتذوها مع هذا النبيّ الكريم خاصّةً في باب الخِطَاب والألفاظ ، كما أنّه محاولة لدراسة موضوعية قرآنية تُطبّق فيها آليات وخطا التفسير الموضوعي في تناول الموضوع القرآني، وبعد هذه الدِّراسةِ الوجيزةِ لتلك الجُزئية من ذلكم الموضوع الكبير بَانَ للباحث أُمور؛ منها: عِظَم تأثير القرآن الكريم في نفوس الصّحابة الكرام الذين وجّههم النصُّ القرآني للحال الأليق بشأن النبيّ في كافة أوجه المعاملة معه وأدب الخطاب على جهة الخصوص، وكيف أنّهم سارعوا للامتثال الأقوام؛ ومن ثَمَّ أثنى عليهم القرآن إثْرَ ذلك .

الكلمات المفتاحية: لفظ (راعنا)، كثرة الأسئلة، كثرة المناجاة، التقديم بين يدي الله ورسوله ، تأديب المؤمنين، الإيمان بالرُّسل، رفع الصَّوت، سورة المائدة، سورة المجادلة

مُقَدِمَةٌ :

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على رسوله الأمين، وعلى أصحابه البررة الميامين الذين قالوا بالحق وبه كانوا يَعْدِلُون، ومَن اقتفى أثرهم إلى يوم الدّين. وبعد ...

فإنّ حقوق المصطفى ﷺ ـ قد أتت بها نصوصُ الكتاب الكريم، وثبتت بين طيّات السّنة المشرّفة، وهي حقوقٌ واجبةٌ على أتباع ملة الإسلام في كلّ زمان ومكان، لا يجوز لهم الانفكاك عنها بحال من الأحوال؛ إذ في اتّبَاعِها طاعة للبارئ ـ ﷻ ـ ، ووفاءٌ ببعض جميل هذا النبيّ الكريم ﷺ على أُمّته، الذي أَخْرَجَنَا الله ـ تعالى ـ به من ظلمات الكفر والشّرك إلى نور الإسلام والهداية .

وفي كتاب الله ـ تعالى ـ جملة من تلك الحقوق كامنةٌ في جملةٍ من الآداب التي وجّه الحقُّ المؤمنين بها ليسلكوها تُجاه نبيهم الكريم ﷺ؛ منها ما كان من قبيل الأفعال وأُخرى من قبيل الأقوال، وقد يسّر الله ـ تعالى ـ لي العيش مع جزئية من هاتيك الآداب متمثّلةً في أدب التَّخَاطب مع رسول الله ﷺ في هذا البحث الوجيز الموسوم بـ «تأديب الله ـ تعالى ـ المؤمنين في خِطَابِ النَّبيِّ ﷺ دراسة موضوعية على ضوء السُّور المدنية».

والباعثُ الحثيثُ لاختيار هذا الموضوع الآتي:

- استجلاء دلالات النصّ القرآني في بيانه لحقوق النبي ﷺ في كثير من الميادين الحياتية، وتوجيهه لأهل الإيمان أن يسلكوا السّبل، ويتنبّهوا للمظاهر التي ينبغي أن يحتذوها مع هذا النبيّ الأكرم ﷺ خاصَّةً في باب الخِطَاب والألفاظ.

- هذا البحث محاولة لدراسة موضوعية قرآنية يُطبّق فيها آليات وخطا التفسير الموضوعي في تناول الموضوع القرآني.

- لم أجد ـ في حدود علمي القاصر ـ من[1] أخذ هذه الجزئية بهذه المنهجية الموضوعية مُسْتَجْلِياً دلالة النص القرآني في ذلك.

وقد آثرتُ السيّر وفق خطة علمية مكونة من: تمهيد، وستة مباحث، وخاتمة، وفهرسين، ومعالمها الآتي:

التمهيد:

وفيه بيانُ أهميةِ الإيمان بالرُّسل، وأنَّ أدب المؤمنين مع نبيّهم ﷺ إنّما هو فرعٌ عن ذلك.

- المبحث الأول: تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن خطابه ﷺ بلفظ : ﴿راعنا﴾، وإرشادهم للَّفظ الأنسب.

- المبحث الثّاني: تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن إشغاله ﷺ بكثرة الأسئلة، وتوجيههم للطريقة المُثْلَى.

- المبحث الثّالث: تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن ندائه ﷺ باسمه المجرَّد.

- المبحث الرّابع: تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن التقدّيم بين يدي الله ورسوله ﷺ.

- المبحث الخامس: تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ .

- المبحث السّادس: تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن إشغاله ﷺ بكثرة المناجاة.

- الخاتمة: وفيها بيان أهم النتائج والتوصيات.

ويمكن حصر حدود ونطاق هذا البحث في أمرين اثنين:

أولاً : حصره في "أدب الخطاب" فحسب ، ويُعْنَي به : القول المُوَجَّه من لدن الصَّحابة الكرام إلى النبيّ ﷺ، ولَفْظُهُم نحوه، وعلى هذا الحدِّ فقد تَمَّ استبعاد مواضع كثيرة؛ لفقدها هذا الشّرط .

ثانياً : حصره أيضًا بسّور مدنيةٍ خمس ، وهي : البقرة، والمائدة، والنُّور، والحجرات، والمجادلة ؛ إذ إنّ هذه السّور هي التي ظهر لي أنّها حَوَتْ "أدب الخطاب" دون غيرها من السُّور المدنية، وبوضوح تامٍّ ، مُرَتِّبًا إيَّاها على حسب ترتيب المصحف.

وقد جاء هذا البحث ليُجيب عن أسئلةٍ عِدَّة ، منها :

١. هل الناس محتاجون لإرسال الله ـ تعالى ـ إليهم رُسُلاً تهديهم الصِّراط المستقيم ؟، ومن ثَمَّ فهل أدب النّاس مع أولئك الأنبياء ـعليهم السلامـ فرعٌ عن ذلك المعتقد ؟.

٢. هل الصِّحابةُ الكرام ـرضي الله عنهمـ تأثروا بسلوكياتٍ ليست صوابًا ، ولم تكن موافقة للأولى في تعاطيها قولًا مع الأنبياء عمومًا، ومع النبيّ ﷺ على جهة الخصوص؟.

٣. ومن ثَمَّ فما كان دور القرآن الكريم عندئذٍ : هل تركهم دون توجيه، أو أنه سار بهم سيرة حميدة في هذا الباب، وبيّن لهم الأفضل، والعاقبة، وكشف لهم عن سوء صنيع مَن تأثّروا بهم من يهود وغيرهم ؟.

٤. هل استجاب الصَّحابةُ ـرضي الله عنهمـ لِمَا نَزَلَ عليهم من توجيه في ذلك؟ وهل أثنى عليهم القرآن بذلك؟.

٥. ما سر تركيز القرآن الكريم على التوجيه الأمثل للأدب الأسنى في خطاب المؤمنين لنبيَّهم ﷺ .

---

(١) **خلا ما كان من الباحث الدكتور** : عبد الرحمن هَوْسَاوي، وأُطروحته الماجستير المسمّاه "منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه" الصّادرة عن دار الذخائر ، بالمملكة العربية السَّعودية، ط١، ١٤١٦هـ . **وقد عَقَدَ الفصل الرابع من الباب الثالث في رسالته تحت عنوان:** "أمر المؤمنين بالأدب مع النبي ﷺ"، ضَمَّنَ فيها بعضَ المباحث والعناوين على جهة الاقتضاب وبمنهجية تختلف عن هذه، وقد بلغ مجمل الصَّفحات لهذا الفصل عنده (١٠) صفحات من أصل رسالته البالغة (٤٦٧) صفحة!.

وقد سَلَكْتُ في هذا البحث منهجًا علميًّا كالآتي :

ترك التعريف بالأعلام الواردة أسماؤهم في متن البحث .

ترقيم الآيات وذكر اسم سورها في صلب الدراسة، وكذا تخريج الأحاديث والآثار بذكر اسم المصدر ورقم الجزء والصَّفحة والحديث، مع الحكم على الحديث إن تيسر ذلك، وعزو الأقوال إلى مظانها قدر الاستطاعة.

تطبيق منهجية وآلية التفسير الموضوعي، والاستفادة من التفسير التحليلي، وتوظيفه لخدمة النص القرآني، مع ختم تلك المباحث غالبًا بالتفسير الإجمالي وفق ما يقتضيه المقام؛ ليخرج البحث في نهاية المطاف بحثًا موضوعيًّا قرآنيًّا مكتملًا بمنهجية منضبطة.

ما كان من تعليقات فإنها تثبت في الهامش؛ تخفيفًا للمتن.

التوثيق بذكر جملة من مظانّ بعض المسائل المبحوثة في المتن كأسباب النّزول ، وبعض الأقوال التفسيرية، ونحوها برقم حاشية واحدة تَرْكًا لتوثيق كلّ قول منها على حِدَة، وهذه طريقة مُنتَهَجَة.

قد أذكر أحيانًا أسبابًا عديدة لنزول الآية، الهدفُ من ذلك : خدمة النصّ القرآني، ومحاولةُ الباحث تجلية معنى الآية، وليس الغَرَضُ التَّزَيُّد!.

قد أوردُ نقولًا عِدَّةً عن مفسّرين في المعنى موضع البحث ليس الغاية منها التَكَثُّر !، كلا إنّما يَحْمِلُ على ذلك أنّه في نصّ كلّ واحدٍ منهم ـ رحمهم الله ـ ما ليس عند الآخر من الإضافة، والإفائدة ، والإثراء المعرفي والدّلالي، واستنطاق النصّ القرآني .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ،،،

التمهيد:

وفيه بيانُ أهميةِ الإيمان بالرُّسل ، وأنَّ أدب المؤمنين مع نبيّهم ﷺ إنّما هو فرعٌ عن ذلك .

الرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ هم المبلِّغُون عن ربّهم ـ تعالى ـ المبشّرون المنذرون لأقوامهم، مُخْرِجُوهُم من ظلمات الكفر والشّرك والضَّلال إلى نور التوحيد والإيمان والهداية ، وهم صفوةُ الخلق مطلقًا، وأفضل البشرية حقًّا ، وحاجة النّاس للرُّسل والأنبياء ماسّة أشدّ من حاجتهم للطعام والشّراب .

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كلّ ضرورة إلى معرفة الرّسول ، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنّه لا سبيل إلى السَّعادة والفلاح لا في الدّنيا ولا في الآخرة إلّا على أيدي الرّسل، ولا سبيلَ إلى معرفة الطّيب والخبيث على التفصيل إلّا من جِهَتِهم ، ولا يُنَالُ رضى اللهِ ألبتة إلاّ على أيديهم، فالطّيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلّا هديهم وما جاؤوا به ، فَهُمُ الميزان الرّاجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزَن الأقوال والأخلاق والأعمال، ومتابعتهم يتميّز أهل الهدى من أهل الضّلال ، فالضَّـرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والرُّوح إلى حياتها ، فأيُّ ضرورةٍ وحاجةٍ فُرِضَتْ فضرورةُ العبد وحاجته إلى الرُّسل فوقها بكثير ، وما ظنّك بمن إذا غاب عنك هديُه وما جاء به طرفةَ عين فَسَدَ قلبُكَ ، وصار كالحوت إذا فارق الماء ، ووضِعَ في المِقْلاة ؟!، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرّسل كهذه الحال بل أعظم ، ولكن لا يُحِسُّ بهذا إلاّ قلبٌ حيٌّ ...»[(١)] .

وقال الإمام السَّفَاريني ـ رحمه الله ـ : «فمن أعظم نِعَم الله على عباده وأشرف مِنَنِهِ عليهم أن أرسل إليهم رُسُلَه ، وأنزل عليهم كُتُبَه ، وبيَّنَ لهم الصّراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلةِ الأنعام ، وأسوأ حالاً منها ، فمن قَبِلَ رسالة الله ، واستقام عليها فهو من خير البرية ، ومَن ردَّها ، وخَرَجَ عنها فهو من شرّ البريّة .... »[(٢)] .

وإنَّ الإيمان بهم وبما جاؤوا به عن الله ﷻ ركنٌ عظيمٌ من أركان الإيمان ـ نَصَّ على ذلك حديث جبريل الطويل[(٣)] ـ لا يتحقق إيمان المكلّف إلاّ به ، «ومعنى الإيمان بالرُّسُل هو التصديق الجازم بأنّ الله ـ تعالى ـ بعث في كلّ أُمّةٍ رسولًا يدعوهم إلى عبادةِ الله وحده لا شريك له ، والكفر بما يُعبد من دونه ، وأنّ جميعَهم صادقون مُصَدّقُون بارُّون راشدون كرامٌ بَرَرَةٌ أتقياءُ أُمناءُ هُداةٌ مهتدون ، وبالبراهين الظّاهرة والآياتِ الباهرة من ربّهم مؤيَّدون، وأنّهم بلَّغوا جميعَ ما أرسلهم الله به، لم يكتموا منه حرفًا ولم يغيّروه ، ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفاً ولم يَنقُصوه : ﴿ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل:٣٥] .

وأنّهم كلّهم كانوا على الحقّ المبين ، والهدي المستبين ، وأنّ الله ـ تعالى ـ اتّخذَ إبراهيم خليلاً ، واتّخذ محمّداً خليلاً ، وكلّم الله موسى

---

(١) زاد المعاد (١/٦٨ـ٦٩) .

(٢) لوامع الأنوار البهية (٢/٢٦١) .

(٣) صحيح البخاري (١/١١٤) ح(٥٠)، و(٨/٥١٣) ح(٤٧٧٧) تحقيق: البغا، وصحيح مسلم (١/٣٩) ح(٥/٩) تحقيق: عبد الباقي.

تكليمًا ، ورفع إدريس مكاناً عليّاً ، وأنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، وأنّ الله ـ تعالى ـ فضَّلَ بعضَهم على بعض ، ورفع بعضهم على بعض درجات، وقد اتّفقَتْ دعوتُهم من أوّلهم إلى آخرهم في أصل الدّين ، وهو توحيد الله ـ ﷻ ـ بإلهيّته وربوبيّته وأسمائه وصفاته ، ونفيُ ما يُضاد ذلك ، أو يُنافي كمالَه ... .

وأمّا فروعُ الشّرائع من الفرائض والحلال والحرام فقد تختلف ، فيُفرَضُ على هؤلاء ما لا يُفرَضُ على هؤلاء، ويُخَفَّفُ عن هؤلاء ما شُدِّدَ على أولئك ، ويُحَرَّم على أُمّةٍ ما يَحِلُّ للأُخرى وبالعكس؛ لحكمةٍ بالغةٍ ، وغايةٍ محمودةٍ قضاها ربّنا ـ ﷻ ـ ؛ ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ ﴾ [المائدة:٤٨] ، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ [الملك:٢] ...، وقصَّ علينا من أنبائهم ، ونبّأنا من أخبارهم ما فيه كفايةٌ وعبرةٌ وموعظةٌ إجمالًا وتفصيلًا، ثُمَّ قال : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء:١٦٤]، وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨] ، فنؤمن بجميعهم تفصيلاً فيما فُصِّل ، وإجمالًا فيما أُجمِل»[1].

فإذا تقرَّرَ هذا فإنَّ أدب المؤمنين مع أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ على جهة العموم ، ومع النبيّ الكريم محمدٍ ـ ﷺ ـ خاصَّةً: حبًّا، وتقديرًا، وتبجيلاً، وتقديمًا، وَوَلاَءً، ومُنَافَحَةً، ومتابعةً إنّما ذلك حَقُّهُم الثّابتُ لهم شرعًا، وحَظْوَتُهُم من لدن مُرْسلهم ـ عزّ شأنُه ـ، نادتْ به الآياتُ الكريماتُ، وَوَعَدَتْ مَن امْتَثَلَهُ بالأجر الجزيل، وبالمقابل فكلّ من لم يقم به حقّ القيام فهو ملومٌ على ذلك، ومؤاخذٌ عليه. قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٣﴾ ﴾[المائدة:١٣].

قال الشَّيخ ابن سعْدِي ـ رحمه الله ـ : «يخبر الله ـ تعالى ـ أنّه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثّقيل المؤكَّد ، وذكر صفة الميثاق وَأجْرَهُم إن قاموا به ، وإثمهم إن لم يقوموا به .... ، ثم ذَكَر مَا وَاثَقَهُم عليه ، فقال : ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ظاهراً وباطناً : بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها ، والمداومة على ذلك . ﴿ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ لمستحقيها . ﴿ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى ﴾ جميعهم الذين أفضلهم وأكملهم محمّد ـ ﷺ ـ . ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أي : عَظَّمتُمُوهُم وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطّاعة ... ، ﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنّة وما فيها من النّعيم ، واندفاع المكروه بتكفير السَّيئات، ودفع ما يترتّب عليها من العقوبات ...»[2].

ولقد جاء نَعْتُ النبيّ ـ ﷺ ـ في كتب الأنبياء السَّابقين وبشَّروا أُممهم ببعثته ، وأمروهم باتباعه، ولم تزل صفاته موجودةً في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم[3] . قال ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلَّذِينَ

(١) معارج القبول (٢/٨٣١ـ٨٣٢) .

وانظر للاستزادة في ذلك : شرح الطحاوية في العقيدة السلفية (١٠٨وما بعدها).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٢٥).

(١) **خرَّج الإمام أحمد بسنده** عن أبي صخر العقيلي قال : «حدثني رجل من الأعراب ، **قال**: جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ـ ﷺ ـ ، فلما فرغت من بيعتي ، **قلت**: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، **قال**: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها ، يُعَزِّي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، **فقال رسول الله** ـ ﷺ ـ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟» ، فَقَالَ برأسه هكذا، أي: لا. **فقال ابنه**: إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومَخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ، **فقال**: «أقيموا

﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٧] .

لقد حَوَتْ هذه الآية الكريمة وظيفة هذا النبيّ الكريم ﷺ من أنّه قد جاء للبشرية كلّها نورًا وهدايةً وطريقًا آمنًا للوصول لِرَحَبَاتِ ربّها العظيم، ومن صفاته أنّه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ ، ومن ثَمَّ فإنَّ كلَّ مَن قَبِلَ هذه المنحة الكريمة عن الله ـ تعالى ـ فآمن بهذا النبيّ ﷺ واتّبعه ـ ليس هذا فحسب بل لابُدَّ مع ذلك مِن التوقير والتبجيل والنُّصرة وكمال الاتباع له فيما يأمر وينهي ـ هؤلاء كلّهم بَشَّرَهُم الحقُّ بالفلاح والرَّشَاد : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

ويُلَخِّصُ الحقُّ ـ تعالى ـ في كتابه العزيز مهمة هذا النبيّ الكريم ﷺ ، فيقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥ـ٤٦] ، ويقول أيضاً : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[الفتح:٨]، ومن ثَمَّ يُبَيِّنُ ـ وَجَلَّ ـ حقوقَه ـ ﷺ ـ على أتباعه بعبارة جامعةٍ مانعةٍ لا مزيد عليها لمتكلِّم ، فيقول : ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح:٩] .

وذُكِر في معنى قوله ـ تعالى ـ :﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي : لتنصروه بالسَّيف . وفي معنى : ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ [المائدة:١٢] ، أي : عَظَّمتُمُوهُم. وقيل : نصرتموهم. وثَمَّة أقوالٌ أُخرى عن السَّلف في المراد بالتعزير هنا :

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ يقول: «حَمَوه ووَقَّروه».

وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ قال: «عَزَّرُوهُ: سَدَّدُوا أمره، وأعانوا رسولَه ، ونَصَرُوه».

وعن قتادة ـ رحمه الله ـ في قوله: «وَتُعَزِّرُوهُ» قال : تنصروه».

وقال ابن جرير الطَّبري ـ رحمه الله ـ: «وَعَزَّرُوهُ» وقَّرُوه وعَظَّمُوه ، وحَمَوه مِن النَّاس».

وقال أيضا بعد أن نقل أقوال ابن عباس ومجاهد وقتادة : «وهذه الأقوال متقاربات المعنى، وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها ، ومعنى التعزير في هذا الموضع : التقوية بالنصر والمعونة، ولا يكون ذلك إلاَّ بالطَّاعةِ والتعظيم والإجلال»[1]. وقد جمع تلك المعاني كلّها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، فعنده أنَّ التعزير : «اسمٌ جامعٌ لنصره وتأييده ومَنعِهِ من كلِّ ما يُؤذيه»[2].

وكما وردت مقولاتٌ عن السّلف في معنى ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ ، فكذلك أتت عنهم مقولاتٌ في معنى ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ : فعن ابن

اليهودي عن أخيكم». ثم وَلِيَ كفنه والصَّلاة عليه» . **قال ابن كثير** : «هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصَّحيح عن أنس» انظر : المسند (٤١١/٥) ، وتفسير القرآن العظيم (٣٣٥/٢) .

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٥/٢٦).
وانظر تلك النقولات عن السَّلف فيه (٧٤/٢٦ـ٧٥) .
(٢) الصّارم المسلول على شاتم الرّسول (٤٢٢) .

عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : «﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ يعني: التعظيم».

وقال قتادة ـ رحمه الله ـ : «﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أَمَرَ اللهُ بتسويده وتفخيمه».

وقال أيضًا : «﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي : ليعظِّموه».

وقال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ : «فأمَّا التوقير فهو التعظيم والإجلال والتفخيم»[1].

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : «التوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يُعَامَل مِن التشريف والتكريم والتعظيم بما يَصُونهُ عن كلِّ ما يُخْرِجُهُ عن حدِّ الوَقَار»[2].

وعلى كلٍّ فإنَّ النَّاظرَ في هاتيك الأقوال المذكورة عن السَّلف ـ رحمهم الله ـ ، والمُتَبَصِّرَ في السِرِّ وراء الجمع الحاصل في الآيتين الكريمتين[3] بين الإيمان بالرَّسول ـﷺ وتعظيمه سيُدْرِكُ ـ لا محالة ـ أنَّ القيامَ بحقوقه ـﷺ يُعَدُّ من الإيمان الواجب الذي لا يتمُّ إيمانُ العبد إلاَّ به ، وأنَّ تعظيمَه ـﷺ وإجلالَه، وتوقيرَه على درجةٍ كبيرةٍ من الأهميةِ في حياة أهل الإيمان، وأنَّه كذلك شعبةٌ عظيمةٌ من شعب الإيمان ، وهذه الشُّعبة تُغايرُ شعبةَ المحبة، بل إنَّ منزلتها ورتبتها فوق منزلة ورتبة المحبة؛ ذاك أنّه ليس كلّ محبٍّ معظِّمًا، ألا ترى أنَّ الوالد يحبُّ ولده ولكنَّ حبه إياه يدعوه إلى تكريمه ولا يدعوه إلى تعظيمه، والوَلَدَ يحبُّ والِدَهُ فيجمَعُ له بين التكريم والتعظيم، والسَّيدُ قد يحب مماليكه ولكنه لا يُعَظِّمهُم، والمماليك يُحِبُّون ساداتهم ويُعَظِّمُونَهم . فَعُلِمَ بذلك أنَّ التعظيم رتبته فوق رتبة المحبة ، ودرجةٌ أرفع من درجتها[4].

قال الحليمي ـ رحمه الله ـ : «فمعلومٌ أنَّ حقوق رسول الله ـﷺ أجل وأعظم وأكرم وألزم لنا وأوجب علينا من حقوق السَّادات على مماليكهم والآباء على أولادهم ؛ لأنَّ الله ـ تعالى ـ أنقذنا به من النَّار في الآخرة، وعَصَمَ به لنا أرواحنا وأبداننا وأعراضنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا في العاجلة ، فهدانا به لِمَا إذا أطعناه فيه أَدَّانَا إلى جنات النعيم . فأيَّةُ نعمةٍ تُوازي هذه النعم ؟!،وأيَّةُ مِنَّةٍ تُدَاني هذه المنن؟!. ثم إنه ـ جَلَّ ثناؤُهُ ـ ألزمنا طاعته، وتَوَعَّدَنَا على معصيته بالنار. وَوَعَدَنَا باتِّبَاعه الجنة . فأيُّ رتبة تُضَاهِي هذه الرتبة؟!، وأيُّ درجةٍ تُسَاوِي في العلا هذه الدَّرَجة؟!. فَحَقٌّ علينا أن نُحِبَّه، ونُجِلَّهُ، ونُعَظِّمَهُ ، ونَهَابَه أكثر من إجلال كلِّ عبدٍ سيدَه ، وكلِّ وَلَدٍ والِدَهُ، وبمثل هذا نَطَقَ القرآنُ ، وَوَرَدَتْ أوامرُ اللهِ ـ جل ثناؤه ـ»[5].

وبعدُ: فإنَّ امتثالَ أهل الإيمان ـ وعلى رأسهم الصَّحابة الكرام ـ لما أُرشِدوا له ، واستجابتهم السَّريعة لِمَا وُجِّهوا به من الأدبِ مع النبيِّ ـﷺ بشتَّى صوره ، وتنوع تطبيقاتِهِ مما قد وَرَدَتْ به آيات الذِّكر الحكيم ـ في عِطَاف السُّور المدينة خاصّة ـ إنّما هو نتيجةٌ حتميةٌ لقيامهم بلوازم شهادة «أنّ محمَّداً رسولُ اللهِ»، وهو تدليلٌ ظاهرٌ على إيمانهم به ـﷺ ، وتصديقهم برسالته ، كما أنّه استِشْعَارٌ مُرْهَفٌ قد تجلَّى في كثير من المواقف المنقولة عن الجيل الأوّل ـرضي الله عنهمـ ، ولقد كانوا على يقين وذكر ما لهذا النبيِّ الكريم ـﷺ عليهم مِن تَبعاتٍ ، وفي نفس الحال هو رعايةٌ صادقةٌ ، ووفاءٌ عاطرٌ مِن قِبَلهم لِمَا ينبغي لجنابه ـﷺ، دونما غلو فيه ، أو تفريطٍ تُجَاهَهُ ، أو تقصير معه، «فَمِن حَقِّ النبيِّ ـﷺ على أُمَّته أن يُهَابَ، ويُعَظَّم، ويُوَقَّر، ويُجَلَّ أكثر مِن كلِّ وَلَدٍ لوالِدِه ، ومِن كلِّ عبدٍ لسيِّدِهِ ، فهذا حقٌّ مِن حقوقِهِ الواجبةِ له مما يزيدُ على لوازم الرِّسالة»[6].

المبحث الأول : تأديب المؤمنين بنهيهم عن خطابه ـﷺ بلفظ (رَاعِنَا) ، وإرشادهم للَّفظِ الأنسبِ .

أتى القرآن الحكيم يربّي بآياته الكريمة مَعْشَر الصَّحابة والمؤمنين مِن بعدهم ، ويسمو بأخلاقهم ، ويعلو بسلوكهم، فيوقفهم من الألفاظ على جميلها، ومن العبارات على أَنسَبها، ومن الفِعال على حميدها، ومن التصرُّفات على رشيدها، والمرءُ مدعوٌّ أن يُدَقِّق

---

(٣) جامع البيان (٢٦/٧٥). **وانظر تلك النقولات عن السَّلف فيه** (٩/٨٥) ، (٢٦/٧٥) .

(٤) الصّارم المسلول (٤٢٢) .

(٥) المراد آية الأعراف [١٥٧] ، وآية الفتح [٩] .

(٦) **انظر** : المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (٢/١٢٤) ، الشعبة (١٥) ، وشعب الإيمان للبيهقي (٢/١٩٣) ، الشعبة (١٥) .

(٧) المنهاج في شعب الإيمان (٢/١٢٤) ، الشعبة (١٥) .

(١) حقوق النبيِّ ـﷺ على أُمّته في ضوء الكتاب والسّنّة (٢/٤٢٣) .

والمقصود من جملة : "مما يزيدُ على لوازم الرِّسالة" : أنّه يجوز أن يبعث اللهُ رسولاً ولا يوجِب له هذا الحقّ ، بخلاف الإيمان والاتباع ؛ فإنّهما من لوازم الرِّسالة . والله أعلم . **انظر** : حقوق النبيِّ ـﷺ على أُمّته في ضوء الكتاب والسّنّة (٢/٤٢٣) .

الفِكْرَ في كلِّ عبارةٍ تخرج مِن فِيهِ؛ إذ هي ميزان عقله، وترجمان فؤاده ، وكم مِن كلمةٍ تقول لصاحبها: دَعْني !.

وثَمَّة كلماتٌ مُوهِمَةٌ قد تحتمل أوجهًا من المعاني، ولربما يَفْهَمُهَا الآخرون على النقيض مما أراده ناطِقُها؛ ولذا والحال هذه فإنَّ المكلَّف مأمورٌ بالتَرَوِّي ؛ لينظر الأنسب بالمقام ، وهو مدعوٌّ للتَبَصُّر ؛ ليرى الأليق بالموضع الذي هو فيه؛ إذ الكلمة ما كانتْ في صدر صاحبها فإنّها له ، فإذا خرجت لم تَعُدْ كذلك ! .

ولقد أدَّبَ الحقُّ ـ تعالى ـ جموعَ الصَّحابةِ المؤمنينَ ـرضي الله عنهمـ بآيةٍ كريمةٍ ، لها دلالاتها وإيحاءاتها، ولها ما بَعْدَها مع مقام النُّبُوَّةِ الكريم ، فقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة:١٠٤] .

ويتعيَّنُ في مثل هذه الآية[1] تطلُّب سبب نزولها ؛ ليظهر موقعها ، ووجه معناها؛ فإنَّ النَّهي عن أن يقولَ المؤمنون كلمةً لا ذمَّ فيها ولا سُخْفَ ـ ظاهراً ـ لا بُدَّ أن يكون لذلك سبب .

أخرج ابن المنذر عن السُّدِّي قال : «كان رجلان من اليهود : مالك بن الصَّيف، ورفاعة ابن زيد إذا لقيا النبيَّ ـﷺـ قالا وهما يكلِّمانه : راعِنَا سَمْعَكَ واسْمَعْ غيرَ مُسْمَع ، فظنَّ المسلمون أنَّ هذا شيءٌ كان أهل الكتاب يُعَظِّمون به أنبياءهم، فقالوا للنبيِّ ـﷺـ ذلك ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ ﴾»(٢) .

وأخرج الطَّبري عن الضحّاك قال : «كان الرَّجل يقول: راعني سَمْعَك ، فنزلت الآية».

وأخرج أيضًا عن عطية قال : «كان أُناسٌ من اليهود يقولون : أَرْعِنَا سَمْعَك حتى قالها أُناسٌ من المسلمين ، فكره الله لهم ذلك ، فنزلت» .

وأخرج أيضًا عن عطاء قال : «كانت لغة الأنصار في الجاهلية ، فنزلت» .

وأخرج أيضًا عن أبي العالية قال : «إنّ العرب كانوا إذا حدَّث بعضُهم يقول أحدُهم لصاحبه:

أَرْعَني سَمْعك ، فنهوا عن ذلك» .

وذكر ابن كثير في تفسيره عن أبي صَخْر أنّه قال : «﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ كان رسول الله ـﷺـ إذا أدبر ناداه مَن كانت له حاجةٌ من المؤمنين ، فيقول : أَرْعِنَا سَمْعَكَ ، فأعظمَ اللهُ رسولَه ـﷺـ أن يُقالَ له ذلك» .

قال الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ : «وقد ذَكَروا في سبب نزولها : أنّ المسلمين كانوا إذا أَلْقَى عليهم النبيُّ ـﷺـ الشّريعةَ والقرآنَ يتطلّبون منه الإعادة والتَّأنِّي في إلقائه ؛ حتى يفهموه ويَعُوه ، فكانوا يقولون له: "راعنا، يا رسول الله"؛ أي: لا تَتَحَرَّجْ منّا ، وأَرْفِقْ ، وكان المنافقون من اليهود يشتُمُون النبيَّ ـﷺـ في خَلَوَاتهم سرًّا، وكانت لهم كلمة بالعبرانية تُشبه كلمة "راعنا" بالعربية ، ومعناها في العبرانية سَبٌّ ، وقيل معناها : لا سَمِعْتَ ، دعاءٌ ، فقال بعضهم لبعض : كنّا نسب محمّدًا سرًّا ، فأعلنوا به الآن ، أو قالوا هذا وأرادوا به اسم فاعل من رَعَن إذا اتصف بالرُّعُونة[3]، فكانوا

---

(١) قرأ الحسن (رَاعِنًا) منونة. **وقال:** أي هُجْرًا مِن القول، وهو مصدرٌ ، ونَصَبَه بالقول، **أي:** لا تقولوا رُعُونَة.
وقرأ زرُّ بن حُبَيش والأعمش (رَاعُونَا)، يُقَالُ لِـمَا نَتَأَ مِن الجبل: رَعْن، والجبل أَرْعَن. وجيشٌ أَرْعَنٌ؛ أي: مُتُفرِّق .
وكذا رجلٌ أَرْعَنٌ؛ **أي:** متفرق الحجج ، وليس عقله مجتمعاً ، **عن النحاس** .
وقال ابن فارس : «رَعن الرَّجُل يَرْعَنُ رَعْنًا فهو أَرْعَن، أي : أهوج ، والمرأة رعناء ، وسُمِّيَتِ البَصْرَةُ رعناء ؛ لأنها تُشبَّه برَعْن الجبل» . **انظر في ذلك :** جامع البيان (١/٤٧٢ـ٤٧٣) ، والجامع لأحكام القرآن (٢/٦٠) ، وروح المعاني (١/٣٤٨) .

(٢) **أي: مثلها من الآيات التي نزلت في أحوال معيّنة ولم يُشْرَح في أثنائها ما يُفصِح عن سبب نزولها إيجازًا واستغناءً بعلم المخاطبين بها يوم نزولها بالسَّبب الذي أوجب نزولها، فإذا لم يُنقل السّبب لِمَن لم يحضره لم يَعْلَم المرادَ منها.**
انظر : التحرير والتنوير (١/٦٥٠) .

(٣) **انظر هذه الرواية وما بعدها في سبب النزول الآتي** : جامع البيان (١/٤٦٩ـ٤٧٠) ، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١/١٩٦ـ١٩٧) ، وأسباب نزول القرآن للواحدي (٣٦) ، ومعالم التنزيل (١/ ١٠٢) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/١٩٨) ، ولباب النقول في أسباب النزول (٢٤).

يقولون هاته الكلمة مع المسلمين ناوين بها السَّبَّ ، فكشفهم الله وأبطل عملهم بنهي المسلمين عن قول هاته الكلمة؛ حتى ينتهي المنافقون عنها ، ويعلموا أنّ الله أطلعَ نبيَّه على سِرّهم»[1] .

وأيّاً ما ذَكَرُوا من تلك الرّوايات المسوقة في بيان سبب النُّزول ، فإنَّ الصَّحَابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ وقد ناداهم الله ـ تعالى ـ بوصف الإيمان ؛ «لتنبيه المخاطبين على أنّ ما في حيّزه أمرٌ خطيرٌ يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، وَوَصَفَهُم بالإيمان ؛ لتنشيطهم والإيذان بأنّه داع إلى المحافظة عليه ، وَوَازع عن الإخلال به»[2]، ما نُهُوا ـ رضي الله عنهم ـ عن قول تلك اللَّفظَةِ بعينها للنبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلاَّ لأمور أظهرها[3]:

١. رعايةُ جنابِ الأدبِ مع النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأنَّ المؤمنَ النَّازلَ عليه القرآن حينها مأمورٌ بالتفطّن إلى أنَّ التعامل مع النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس كالتعامل مع غيره؛ فلذا فإنَّ أيَّ كلمةٍ يُلْحَظُ فيها الجفوة ولو شيئاً ، أو تُشْعِرُ بقلَّة التوقير ولو يسيرًا، فلا ينبغي أن تُقَالَ بحضوره، فضلاً عن أن تُوَجَّه لمقامه الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قال الطَّبري ـ رحمه الله ـ : «وكان الله ـ جل ثناؤه ـ قد أمر المؤمنين بتوقير نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعظيمه، حتى نهاهم ـ جَلَّ ذِكْرُهُ ـ فيما نهاهم عنه عن رفع أصواتهم فوق صوته، وأن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وخوَّفَهم على ذلك حبوط أعمالهم ، فتقدم إليهم بالزَّجر لهم عن أن يقولوا له من القول ما فيه جفاء، وأمرهم أن يتخيَّروا لخطابه من الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أَرَقَّهَا .

فكان من ذلك قولهم :"راعنا" ؛ لِمَا فيه من احتمال معنى: ارْعَنا نَرْعَاك؛ إذ كانت المفاعلة لا تكون إلاَّ من اثنين، كما يقول القائل:"عاطنا، وحادثنا، وجالسنا"، بمعنى: افعل بنا ونفعل بك ، ومعنى "راعنا" : أرعنا سمعك حتى نفهمك وتفهم عنا»[4].

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «"راعنا" من المراعاة بمعنى: فاعلنا أي: أرعنا نرعك ، وفي هذا جفاءٌ أن يُخاطِبَ به أحدٌ نبيَّه، وقد حضَّ الله ـ تعالى ـ على خفض الصّوت عنده وتعزيره وتوقيره»[5] .

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «وحقيقة "راعِنا" في اللُّغة : أَرْعِنَا وَلْنَرْعِكَ؛ لأنَّ المفاعلة من اثنين، فتكون مِن رعاك الله، أي : احفظنا ولنحفظك، وارقبنا ولنرقبك .

ويجوز أن يكون مِن أَرْعِنا سَمْعَك، أي : فَرِّغْ سمعك لكلامنا .

وفي المخاطبة بهذا جفاءٌ، فَأَمَرَ المؤمنين أن يتخيَّرُوا مِن الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أَرَقَّها»[6].

وقال أبو حيَّان الأندلسي ـ رحمه الله ـ : «ثُمَّ لم يكن نهيًا عن شيءٍ سبق تحريمه ، ولكن لَمَّا كانت لفظة المفاعلة تقتضي الاشتراك غالبًا ، فصار المعنى : ليقعْ منك رَعْيٌ لنا ، ومنَّا رَعْيٌ لك، وهذا فيه ما لا يَخْفَى مَع مَن يُعَظَّمُ[7] ، نُهُوا عن هذه اللَّفظة ؛ لهذه العلّة ، وأُمروا بأن يقولوا : (انظُرْنَا) ؛ إذ هو فعلٌ من النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا مشاركةَ لهم فيه معه»[8].

٢. حِرْصُ الشَّارع الحكيم أن يتمايَزَ أهلُ الإيمان عن مخالفيهم في الدّيانة خاصّة اليهود والنّصارى ، وقد أتى هذا المعنى مُؤَكَّدًا في آياتٍ كثيرةٍ وأحاديث عِدَّة، وهذا التمايز يأتي تارةً في المعتقد ، وأُخرى في الأقوال ، وحينًا في الأفعال والسُّلوك . واليهود ـ على جهة التحديد ـ مَعْرُوفُونَ بحقدهم الشّديد على ملّة الإسلام ونبيّها الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ ولذا فإنّهم ما فتئوا يَتَحَيَّنُونَ الفُرَصَ للإساءة بشكل أو بآخر للنبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، مستعملين التعريض حينًا والتصريح حينا آخر. ولقد حَكَى القرآنُ لنا أنَّهم ـ أي:اليهود ـ كانوا يستعملون لفظة "رَاعِنَا" في خطاب النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُضْمِرِينَ غير ما يُظْهِرون ، ولاعبين بدلالتها وِفْقَ ما يريدون من أذية وشتم لشخص النبيّ الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ولا غرابة في ذلك فهم قَتَلَةُ الأنبياء، بل لم يسلم منهم حتى جناب الله العظيم!. قال الله ـ تعالى ـ:﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا

(٢) التحرير والتنوير (١/٦٥٠).

(٣) إرشاد العقل السَّليم (٦/١١١) .

(٤) **في البحر المحيط** (١/٥٠٨): **«وذُكِرَ في النَّهي وجوهٌ** : إنّ معناها : اسمع لا سمعت . أو أنّ أهل الحجاز كانوا يقولونها عند المفرّ ، **قاله قطرب** . أو أنّ اليهود كانوا يقولون راعينا ؛ أي : راعي غنمنا . **أو أنّه مفاعلة** ، فيوهم المساواة . **أو معناه** : راع كلامنا ولا تغفل عنه . أو لأنه يتوهّم أنّه من الرُّعونة» .

(٥) جامع البيان (١/٤٧١ـ٤٧٢).

(٦) المحرر الوجيز (١/٣١٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/٥٦) .

(٢) **لِمَا فيه من إيهام المساواة** .

(٣) البحر المحيط (١/٥٠٨) .

لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ ﴾ [النِّساء:٤٦] وهذه الآية قد جَمَعَتْ كثيرًا من سَخَافَاتِ اليهود، وصورًا عِديدة من غطرستهم الفَجَّة مع النبي ﷺ .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «ومعنى ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ : يتأولونه على غير تأويله. وذمَّهم الله ـ تعالى ـ بذلك؛ لأنهم يفعلونه متعمدين. وقيل : ﴿عَنْ مَواضِعِهِ"﴾ يعنى صفة النبي ﷺ . ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا﴾ أي : سَمِعنا قولَكَ وعصينا أمرك . ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ قال ابن عباس : كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسمعْ لا سَمِعْتَ، هذا مرادهم ـ لعنهم الله ـ وهم يظهرون أنهم يريدون : اسمع غير مُسْمَع مَكْرُوهَاً ولا أذى . وقال الحسن ومجاهد : معناه غير مُسْمَع منك؛ أي: مقبول ولا مجاب إلى ما تقول . ومعنى : ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي : يلوون ألسنتهم عن الحقِّ؛ أي : يميلونها إلى ما في قلوبهم . ﴿وَطَعْنًا﴾ معطوف عليه ؛ أي : يطعنون في الدِّين؛ أي : يقولون لأصحابهم لو كان نبيًّا لَدَرَى أننا نَسُبُّه، فأظهر الله ـ تعالى ـ نبيه على ذلك ، فكان من علامات نبوته، ونهاهم عن هذا القول»[1] .

وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ : «كلمةٌ ـ أي: راعنا ـ كانت اليهود تقولها لرسول الله ﷺ على وجه الاستهزاء والسبّ ، كما قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ ، فَنُهِيَ المسلمون عن قولها، وهذا قول ابن عباس وقتادة»[2] .

وقال الشَّيخ ابن سعْدِي ـ رحمه الله ـ عند تفسيره آية النساء : «وكذلك يخاطبون ـ أي: اليهود ـ الرَّسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب ، فيقولون : ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ قصدهم : اسمع منا غير مُسْمَع ما تُحِبُّ، بل مُسْمَعٌ ما تَكْرَه، ﴿وَرَاعِنَا ﴾ قصدهم بذلك الرُّعونة، بالعيب القبيح، ويظنون أنَّ اللَّفظ ـ لمَّا كان مُحْتَمِلاً لغير ما أرادوا من الأمور ـ أنه يَرُوجُ على اللهِ وعلى رسوله، فتوصَّلُوا بذلك اللَّفظِ الذي يَلوون به ألسنتهم إلى الطَّعْن في الدِّين والعيبِ للرَّسول، ويُصَرِّحُونَ بذلك فيما بينهم؛ فلهذا قال : ﴿ لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾»[3].

وإذْ فإنَّ هاتيك الكلمة "رَاعِنَا" قد كانت تستخدم عند اليهود وفي لغتهم بشكل أو بآخر، ويُمَوِّهونها ما شاؤوا من المعاني السَّلبية المُنحَطَّة لَيًّا بألسنتهم، وهي مِن جملة أُحْمُوقَاتهم التي ينتهجونها مع أنبياء الله ـ تعالى ـ ، ولن تكون الأخيرة ، وقد قصَّ الله ـ تعالى ـ علينا أذيتهم لموسى ـ عليه السلام ـ، وكيف أنَّ الحقَّ ـ تعالى ـ نادى الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ ألَّا يكونوا مُؤذين للنبيِّ ﷺ كما آذتِ اليهود نبيَّها، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٩] .

ومن ثَمَّ فإنَّ استخدام الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ لها لا يَجْمُل والوصفُ ما مضى ، ومِن هنا أتى النَّهْيُ عنها ؛ سدًّا للذَّريعة ، وتوجيهًا للأحسن ، وقطعًا لدابر المشابهة لأولئك المغضوب عليهم ، ولو كان في مقولةِ لفظةٍ من خمسةِ أَحْرُفٍ فحسب ، فكيف بغير ذلك ! .

قال الطَّبري ـ رحمه الله ـ : «فنهى اللهُ ـ تعالى ذِكْره ـ أصحاب محمدٍ أن يقولوا ذلك كذلك، [وأمرهم] أن يُفْرِدُوا مسألته بانتظارهم وإمهالهم؛ ليعقلوا عنه بتبجيل منهم له وتعظيم، وأن لا يسألوه ما سألوه من ذلك على وجه الجفاءِ والتجَهُّم منهم له، ولا بالفظاظة والغِلْظَةِ، تَشَبُّهًا منهم باليهود في خطابهم نبي الله ﷺ ، بقولهم له : ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا ﴾. يدلُّ على صحةِ ما قُلْنا في ذلك قولُه : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ ﴾ [١٠٥] ، فَدَلَّ بذلك أنَّ الذي عاتبهم عليه، مما يَسُرُّ اليهود والمشركين»[4].

---

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٣٤) .

(٥) النكت والعيون (١/ ١٦٩) .

(٦) تيسير الكريم الرَّحمن (١٨١) .

(١) جامع البيان (١/ ٤٧١ـ٤٧٢) .

والكلمة بين المعكوفتين ساقطة من طبعة دار الفكر، ومثبتة في طبعة دار هجر (٢/ ٣٨٠) بتحقيق الدكتور : عبد الله التركي .

وقال ابن جُزَيّ الكلبي ـ رحمه الله ـ : «فكان اليهود يقولونها : ويعنون بها معنى الرُّعونة على وجه الإذاية للنبي ﷺ ، وربما كانوا يقولونها على معنى التِّداء ، فنهى الله المسلمين أن يقولوا هذه الكلمة؛ لاشتراك معناها بين ما قصده المسلمون وقصده اليهود ، فالنهي سدًّا للذريعة ، وأمروا أن يقولوا؛ انظرنا ؛ لِخُلُوِّه من ذلك الاحتمال المذموم ، فهو من النظر والانتظار»[1].

وقال الشيخ ابن سعْدِي ـ رحمه الله ـ : « فيقصدون بها ـ أي: المسلمون ـ معنى صحيحًا، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدًا، فانتهزوا الفرصة ـ أي اليهود ـ، فصاروا يخاطبون الرَّسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة؛ سدًّا لهذا الباب ، ففيه النَّهي عن الجائز ، إذا كان وسيلة إلى مُحَرَّم»[2].

٣. أنَّ في النَّهي عنها تربيةً لأهل الإيمان أن ينأوا بأنفسهم عن مواقع الشُّبه حتى في الألفاظ التي ينطقونها بحيث لا تُفهَمُ على معانٍ أُخرى لها ظلالها القاتمة في أذهان السامعين !، فَوَجَّهَم الشَّارعُ أن يَعْدِلوا عن ذلك إلى ألفاظٍ واضحةٍ محدّدة المعنى لا احتمالَ فيها ، ولا تشويشَ ، ولا لَبسَ معها ، ولا تمويه . ولهذا النَّهي نظائر أتت بها السُّنَّة المطّهرة ، منها ما ثبت عنه ﷺ أنّه نهى أن يُقَالَ للعنبِ :كَرمٌ ، ولكن يُقال : "العِنَبُ والحَبَلَة"[3].

وأن يقول الرَّجلُ : "عبدي وأمتي"، بل يقول "فتاي وفتاتي"[4].

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١/٧٧ـ٧٨) .

(٣) تيسير الكريم الرَّحمن (٦١) .

(٤) صحيح مسلم (٤/١٧٦٣) ح(٢٢٤٧، ٢٢٤٨) ،تحقيق : عبد الباقي .

ولفظه : «ولا يقولن أحدكم للعنب كرماً ؛ فإنّ الكرم الرَّجل المسلم» ، **وفي لفظ** : «فإن الكرم قلب المؤمن» .

(٥) صحيح مسلم (٤/١٧٦٤) ح(٢٢٤٩) ، تحقيق : عبد الباقي .

ولفظه : «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلّكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، **ولكن ليقل:** غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي»، **وفي لفظ** : «لا يقولن أحدكم عبدي ؛ فكلّكم عبيد الله ، **ولكن ليقل:** فتاي ، ولا يقل العبد: ربّي ، **ولكن ليقل:** سيِّدي» .

قال الطَّبري ـ رحمه الله ـ : «والصَّواب من القول في نهي الله ـ جل ثناؤه ـ المؤمنين أن يقولوا لنبيه: "راعنا" أن يُقَالَ: إنها كلمة كَرِهَهَا اللهُ لهم أن يقولوها لنبيه ﷺ ، نظير الذي ذُكِر عن النبيّ ﷺ أنه قال: "«لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا: الحبَلة» . و«لا تقولوا: عبدي، ولكن قولوا: فتاي». وما أشبه ذلك من الكلمتين اللَّتين تكونان مستعملتين بمعنى واحد في كلام العرب، فتأتي الكراهةُ أو النَّهي باستعمال إحداهما، واختيار الأخرى عليها في المخاطبات .

فإن قال لنا قائل : فإنا قد علمنا معنى نهي النبيّ ﷺ في "العنب" أن يقال له"كرم"، وفي"العبد" أن يقال له"عبد"، فما المعنى الذي في قوله:"راعنا" حينئذ، الذي من أجله كان النهي من الله ـ جلَّ ثناؤُه ـ للمؤمنين عن أن يقولوه، حتى أمرهم أن يُؤثِرُوا قوله :"انظرنا" ؟ .

قيل: الذي فيه من ذلك، نظير الذي في قول القائل:"الكرم" للعنب، و"العبد" للمملوك : وذلك أن قول القائل:"عبدي" لجميع عباد الله، فكره للنبي ﷺ أن يُضَافَ بعضُ عباد الله بمعنى العبودية إلى غير الله، وأمر أن يضاف ذلك إلى غيره بغير المعنى الذي يضاف إلى الله ـ ﷻ ـ، فيقال:"فتاي".

وكذلك وجه نهيه في"العنب" أن يقال:"كرم" ؛ خوفا من توهّم وصفه بالكرم، وإن كانت مُسَكَّنَة، فإن العرب قد تُسَكِّن بعض الحركات إذا تتابعت على نوع واحد ، فكره أن يتصف بذلك العنب.

فكذلك نهى الله ـ ﷻ ـ المؤمنين أن يقولوا :"راعنا"، لما كان قول القائل:"راعنا" محتملاً أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظك، وارقبنا ونرقبك، من قول العرب بعضهم لبعض:"رعاك الله": بمعنى : حفظك الله وكلأك ، ومحتملاً أن يكون بمعنى : أَرْعنا سمعك ، من قولهم :"أرعيت سمعي إرعاء ، أو راعيته سمعي رِعاء أو مراعاة" ، بمعنى: فرغته لسماع كلامه ...»[5].

وقال الشَّيخ ابن سعْدِي ـ رحمه الله ـ: «وفيه الأدب ، واستعمال الألفاظ ، التي لا تحتمل إلاَّ الحسن ، وعدم الفحش ، وترك الألفاظ القبيحة ، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق»[6] .

(١) جامع البيان (١/٤٧١) .

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (٦١) .

وإذْ قد تقرّر هذا فإنَّ الشّارع الحكيم قد نقلَ معشر الصَّحابة ـ ﷺ ـ للفظةٍ أُخرى دون تلك ، فيها تحقيق للمراد، وانتفاءٌ عن المُحْتَمَل، وتركٌ للمشابهة؛ إذ ليس لها نظيرٌ في لغة يهود ـ ، وإغاظة للخصوم المتربّصين، فـ«أبدلهم بكلمة "راعنا" كلمةً تساويها في الحقيقة والمجاز، وعدد الحروف والمقصود مِن غير أن يتذرَّعَ بها الكفَّارُ لأذى النبيّ ـ ﷺ ـ، وهذا من أبدع البلاغة»[1].

و«أمرهم بلفظةٍ لا تحتمل إلاَّ الحُسْن، فقال : ﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ ، فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور»[2]، ومعناها : «انتظرنا وامْهل علينا ، ويُحتمل أن يكون المعنى : تفقَّدنا ، من النَّظر، وهذه لفظةٌ مُخْلَصَةٌ لتعظيم النبيّ ـ ﷺ ـ، والظَّاهر : استدعاء نظر العين المقترن بتدبر الحال ، وهذا هو معنى "راعنا"، فبُدِّلَتْ للمؤمنين اللّفظة ؛ ليزول تعلّق اليهود»[3].

قال الماوردي ـ رحمه الله ـ : «﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ فيه ثلاثة تأويلات : أحدها : معنـــاه : أَفْهِمْنَا

وبيّن لنا . وهذا قول مجاهد . والثّاني : معناه : أَمْهِلْنَا . والثّالث : معناه : أَقْبِلْ علينا وانظر إلينا»[4].

وزاد الحقُّ ـ ﷻ ـ درجة أُخرى من التعليم والتوجيه والتأديب، فأمرهم بالسَّمع بقوله:﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾، «أي : سماع قبول وطاعة، وقيل معناه : أقبلوا، وقيل: فرّغوا أسماعكم حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة، وقيل : اسْمَعُوا ما أُمرتم به؛ حتى لا ترجعوا تعودون إليه ، أكَّد عليهم ترك تلك الكلمة»[5].

ولقد تَرَبَّى في حسّ الصَّحابة ـ ﷺ ـ وهم مَن نزل عليهم القرآن أوّلاً ألاَّ يكونوا كمَعْشَر يهود ـ وحاشاهم ـ في تمَرُّدِهم على رُسُلِهم، وردِّهم أوامر خالقهم، وكثرة اختلافهم على أنبيائهم، مما أورثهم الشّقاء والعنت ، وشدّة التكاليف والآصار ، فلقد كان يهودُ يَسْمَعُونَ ويَعْصُونَ ، ويُؤْمَرُونَ فَيَأبَونَ ، قال الحقُّ ـ تعالى ـ مبيّناً حالهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[البقرة:٩٣] . وكفى بهذه الآية ومثيلاتها تنفيرا لمن بلغه الوحي ساعتئذٍ ومَن بعدهم إلى قيام السّاعة أن يَشْتركُوا ويهود في لفظٍ،أو مقولةٍ،أو تَصَرُّفٍ،أو سُلُوكٍ!،ولقد غَدَتْ تلك الآيات الكريمات نِعْمَ الدَّافع لأولئك الجلّة ـ ﷺ ـ فكانَ سَمَاعُهُم سماع قبول وطاعةٍ، وسماع امتثال لأوامر الله بكلّ جوارحهم.

ولم ينته التعريض باليهودِ ـ سَبَّابَةِ الأنبياء ـ عند هذا الحدِّ ، بل خُتِمَتِ الآيةُ بالوعيدِ الشَّديدِ لكلّ كافر، وهم على رأس القائمة، إذ كُفْرُهم قديمٌ كَقِدَم كُرْهِهِمْ للحقّ ، وأصيلٌ كَتَأَصُّل تَرَبُّصِهم بنبيّ المَرْحَمَة ـ ﷺ ـ فقال: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾، والتعبير بالكافرين دون "اليهود"؛ زيادةٌ في ذَمّهم.

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ : «اللاَّم للعهد ، فالمراد بالكافرين اليهود الذين قالوا ما قالوا ؛ تهاونا بالرّسول ـ ﷺ ـ المعلوم مما سبق بقرينة السّياق ، ووضع المظهر موضع المضمر ؛ إيذانا بأنَّ التهاونَ برسول الله ـ ﷺ ـ كفرٌ يوجِبُ أليمَ العذاب ، وفيه مِن تأكِيدِ النَّهي ما فيه»[6].

ولعلَّ سائلاً متدبّرا يدور بخَلَدِهِ وجهُ مناسبةِ هذه الآية الكريمة لموقعها من كونها آتيةٌ بعدَ قول الحقّ ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا

---

(١) البحر المحيط (٥٠٩/١) .
(٢) روح المعاني (٣٤٩/١) .
(٣) التحرير والتنوير (٦٥١/١) .
(٤) تيسير الكريم الرَّحمن (٦١) .
(٥) المحرر الوجيز (٣١٣/١) .
(٦) النكت والعيون (١٧٠/١) .

يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾ [البقرة:١٠٢-١٠٣]، ويأتي بعدها قولُهُ - تعالى - : ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ [البقرة:١٠٥] ؟!.

وبالتأمّل يظهر أنَّ قولَه - جلّ شأنُه - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ هي واسطة العقد، درَّة في مكانها، ومُبينةٌ في حيزّها، من حيث إنهّا أتت تذكر لنا «شيئاً آخر من جَهَالاتِ اليهود ، والمقصود نهي المسلمين عن ذلك»[(١)].

فما قبلها كان تَحَدَّثَ عن اليهود وكيف أنّهم تركوا الإيمان ببعثة محُمّد ـ ﷺ ـ واتبِاع القرآن الكريم واستبدلوا بذلك السِّحرَ وكُتُبه وزيفه وتخيُّلاته، وما تَقَوَّلَتْهُ الشّياطينُ على سليمان النبيّ الملك الموحِّد ـ عليه السلام ـ، والسِّحر فيه خِدَاعٌ وتمويهٌ وتناقضاتٌ، وكذلك تلك الكلمة التي يقولونها للنبيّ ـ ﷺ ـ يُخَادِعُون بها ويموّهون .

وأمّا مناسبتها للآية بعدها فظاهرةٌ أيضا باعتبار انّ تلك اللّفظة التي كانت ألسنتهم تُلَوِّكُهَا مما تَرْضَى به اليهود ويَرْضَى به المشركون، وتوجيهها للنبيّ الأكرم ـ ﷺ ـ سواء من اليهود ابتداءً أو مِن الصَّحابةَ ـ رضي الله عنهم ـ تقليدا أمرٌ يسُرُّ خاطر يهود، وتَغْتبِطُ به قلوبهُم المريضةُ الجاحدة؛ ذلكَ أنّ الخصمَ العتيدَ إن عَجَزَتْ حِيلُه في إيصال الأذى العظيم لعدوه فإنَّه يُفْرِحُه ويَسُرُه أيسر شيءٍ وأهون أذى يَلْحَقُ خَصْمَهُ حتى ولو كان كلمةً عابرةً جارحةً شاتمةً حَمَّالَةَ أَوْجُهٍ؛ إذْ معشر الكفرة باختلاف أصنافهم يتَّفِقُونَ على كُرهِ أدنى خير يأتي لأهل الإسلام ــ وأشدّهم في ذلك اليهود والذين أشركوا ــ، ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ ﴾[المائدة:٨٢] ، ومفهُومُهُ أنّهم يُسَرُّونَ كذلك بأقلّ أذى يُحْزِنُ عباد الله المؤمنين!.

قال الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ: «ومناسبة نزول هاته الآية عَقِبَ الآيات المتقدِّمَة في السّحر وما نشأ عن ذَمِّهِ : أنّ السّحر كما قدّمنا راجعٌ إلى التمويه، وأنَّ من ضروبِ السّحر ما هو تمويهُ ألفاظ وما مبناهُ على اعتقاد تأثير الألفاظ في المسحور بحسبِ نية السّاحر، وتوجّهه التفسي إلى المسحور ، وقد تأصَّل هذا عند اليهود، واقتنعوا به في مقاومةِ أعدائهم . ولـمّا كان أذى الشّخص بقول أو فعل لا يَعْلَم مَغْزَاهما كخطابه بلفظٍ يُفيد معنى ، ومقصود المتكلّم منه أذى ، أو كإهانةِ صورته ، أو الوطءِ على ظِلِّهِ كلّ ذلك راجعا إلى الاكتفاءِ بالنيةِ والتوجّه في حصول الأذى كان هذا شبيها ببعض ضروبِ السّحر؛ ولذلك كان مَن شعار من استهواهم السّحر واشْتَرَوهُ ناسبَ ذكر هاته الحالة من أحوالهم عقِبَ الكلام على افتتانهم بالسّحر وحبّه دون بقيّة ما تقدّم مِن أَحْوالِهم، وهاته المناسبة هي موجب التعقيب في الذّكر.

وإنّما فُصِلَت هذه الآية عمّا قبلها؛ لاختلاف الغرضين؛ لأنّ هذه في تأديب المؤمنين ، ثم يحصل منه التعريض باليهود في نفاقهم وأذاهم ، والإشعار لهم بأنَّ كيدهم قد أطلع الله عليه نبيّه ، وقد كانوا يَعُدُّونَ تَفَطُّنَ المسحور للسِّحْر يُبطل أثره، فأشبهه التفطّنُ للنوايا الخبيثة ، وصريح الآيات قبلها في أحوالهم الدينية المنافية لأصول دينهم ...»[(٢)].

ويَحْسُنُ بعدَ هذا العَرْض ذِكْرُ المعنى الإجمالي للآية الكريمة مناط البحثِ ، وأنَّ معناها : «يا أيّها الذين آمنوا لا تقولوا لنبيّكم : راعنا سمعك وفرّغه لنا، نفهمك وتفهم عنّا ما نقول، ولكن قولوا : انتظرنا وترّقبنا حتى نفهم عنك ما تعلّمنا وتبيّنه لنا ، واسمعوا منه ما يقول لكم فَعُوه واحفظوه وافهموه ، ثُمَّ أخبرهم ـ جلّ ثناؤه ـ أنّ لِمَن جَحَدَ منهم ومِن غيرهم آياته، وخالف أمره ونهيه، وكذَّبَ رسوله العذاب الموجع في الآخرة ، فقال : وللكافرين بي وبرسولي عذابٌ أليمٌ ، يعني بقوله الأليم : الموجع»[(٣)].

وبعدُ : فإنَّ الحقَّ ـ تعالى ـ يأبى على عبادِه المؤمنين وفي طليعتهم الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ إلا أن يربيهم بأحسن الخِلال، ويؤدّبهم

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥٦/٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٦٥١/١) .

(٣) جامع البيان (٤٧٤/١) .

بأطيب السَّجايا والفِعال؛ فَمَعْدَنُهم أصيلٌ، وقلوبهم طاهرةٌ نقيَّةٌ، تقبلُ عن الحقِّ التَلَقي ، وتستمع القول فتتبع أحسنه ، على النَّقيض من قتلة الأنبياء!.

والحقُّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ هنا قد وَجَّهَ الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ لأدبٍ عظيمٍ مع نبيِّه الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وستتلاحقُ مواطنُ أُخرى تربَّى فيها الصَّحابة أيضاً بآدابٍ فُضْلَى ، وتوجيهات عالية ، فتعقلُ الدّرسَ ، وتَنتَهِجُ الدربَ ، وتُزايلُ طريقة اليهود وأضرابهم : ممن فـقدوا الأدب مع البـارئ ـ سبحانـه ـ ابتداء ، ومع أنبيائـه ـ عليهم السَّلام ـ عامّة ، والنبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصَّة ، حتى غَدَوا مضرب المثل في قلّة التوقير والإجلال !.

المبحث الثّاني : تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن إشغاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكثرة الأسئلة، وتوجيههم للطريقة المُثلَى.

الرّسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المبلّغ أُمَّته دين ربها، ولا شكَّ أنَّ مَن كانت هذه حاله فَمِن البَدَهِيّ أن تَأْرِزَ إليه العقول قبل الأشخاص تستفهمه عن أمور شتّى من صلب دينها ، وتستوضحه عن معانٍ كثيرةٍ هي دعائم عقيدتها ؛ إذ تعلُّقها به ساعتئذٍ كتعلّق الغريق بمنقذه ، واستمساكهم به كاستمساك الأعمى بمن يُبَصِّرُه معالم دربه ، ولا غضاضة في ذلك والحال هذه ، وكثيرةٌ هي السّؤالات التي نقلها لنا القرآن عن الصّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ سألوا بها ، فأجابهم الوحيُ مبيّنا ما خفيَ عليهم ، ومزيلا كلَّ غَبَش لديهم؛ إذ سؤالهم حينها لم يترتّب عليه شيءٌ من المحاذير، والدّاعيةُ إليه قائمةٌ ؛ لتحقيق مصلحةٍ من أُمور الدّين أو الدّنيا، فكان مأذونا فيه، ولربما وصل حالُهُ إلى حَدِ الأمر به، كما أفاده قولُه ـ تعالى ـ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٧] ، وكما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن أفتى بغير علم فأزهقَ الرُّوحَ : «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا ؛ فإنّما شفاء العِيّ السُّؤال»[١].

(١) أخرجه الدّارمي في سننه (١/٢١٠) ح(٧٥٢) ، وأبـو داود في سننه (١/٩٣) ح(٣٣٦) ، وابن ماجه في سننه (١/١٨٩) ح(٥٧٢) ، والحـاكم في المستدرك (١/٢٨٥، ٢٧٦) ح(٣٦٠، ٣٦١)، والبيهقي في السُّنن الكبرى(١/٢٢٧) ح(١٠١٦) .

لكن ما ليس مقبولاً سؤالهم عن أمور لم تقعْ بعدُ ، وكذا السّؤال عمّا لا يعني ، ومِثْلُهُ سؤال الأشياء التي إذا بُيِّنَتْ لهم ساءتهم وأحزنتهم[٢]، وكذا الإكثار من السؤالات إلى حَدِّ اللَّجَاجَة، بحيث تكون الشّغل الشّاغل للجُمُوع ، والهَمّ الأكبر للأفراد ، إنَّ الأسئلةَ بذلكم التوصيف الآنف تخرج عن الحكمة التي أباحتها ، وتتعدّى إلى طور لا يتأتّى من ورائه الخير المنشود للأُمَّةِ المسلمة في عهد النبّوة ولا حتى مَن أتى بعد ذلكم العهد الميمون ! . ناهيك عن «أنّ الأُمّة تكون في سَعَةٍ إذا لم يُشَرَّعْ لها حُكْمٌ، فيكون النّاس في سَعَةِ الاجتهاد عند نزول الحادثة بهم بعد الرّسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإذا سَأَلوا وأُجِيبُوا من قِبَل الرّسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعيّن عليهم العمل بما أُجِيبُوا به ، وقد تختلف الأحوال والأعصار ، فيكونون في حرج إن راموا تغييره»[٣].

وهنا أدبٌ بليغٌ في هذا الباب أَدَّبَ به الحقُّ ـ تعالى ـ معشر الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ زَمَنَ نزول القرآن ، وألمح لِمَن أَتَى بعدهم لِمَغَبَّة تجاوزه وعدم الاحتفاء به، وذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [المائدة:١٠١ـ١٠٢] . والقرآن الكريم «هنا يعلّمهم أدب السُّؤال، وحدود البحث، ومنهج المعرفة، وما دام الله ـ سبحانه ـ هو الذي ينزّل هذه الشّريعة، ويُخبر بالغيب ، فمن الأدب أن يترك العبيد لحكمته تفصيل تلك الشّريعة، أو إجمالها ، وأن يتركوا له كذلك كشف هذا الغيب أو ستره ، وأن يَقِفُوا هم في هذه الأمور عند الحدود التي أرادها العليم الخبير ، لا ليُشَدِّدوا على أنفسهم بتفصيص التصوص ، والجري وراء الاحتمالات

وقال عنه الشيخ الألباني: "حسن" . بتلك الجملة السابقة فقط . انظر : صحيح أبي داود (٢/١٥٨ـ١٥٩) ح(٣٦٤) .

(٢) وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن آبائهم ، وعن حالهم في الجنّة أو في النّار، مما سيأتي ذكره في سبب نزول الآية، فهذا ربما أنّه لو بيّن للسّائل لم يكن له فيه خيرٌ.

(٣) التحرير والتنوير (٧/٦٦) .

والفروض، كذلك لا يجرون وراء الغيب يُحاولون الكشف عمّا لم يكشفِ اللهُ منه وما هم ببالغيه ، والله أعلم بطاقة البشر واحتمالهم ، فهو يُشرّع لهم في حدود طاقتهم ، ويكشف لهم من الغيب ما تدركه طبيعتهم، وهناك أمورٌ تركها الله مُجْمَلَة أو مُجْهَلَة، ولا ضير على النّاس في تركها هكذا كما أرادها الله»[1].

وقد ذَكَروا في سبب نزولها أقوالاً عِدّةً :

- الأوّل : أنّها نزلت بسبب إكثار السّائلين رسولَ الله ﷺ المسائل.

يدل لهذا ما خَرّجَاه في الصّحيحين[2] ـ واللّفظ لفظ مسلم ـ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، قال : «بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ فخطب، فقال: عُرِضَتْ عليَّ الجنة والنّار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشّرّ ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، قال : فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدَّ منه ، قال : غطّوا رؤوسهم ولهم خَنين ، قال : فقام عمر ، فقال: رضينا بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد نبيّاً، قال: فقام ذاك الرّجل، فقال : مَن أبي؟ ، قال : أبوك فلان ، فنزلت : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .... الآية﴾» .

وفي لفظٍ لمسلم : عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال : سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن أشياء كرهها ، فلمّا أُكْثِرَ عليه غضِب، ثُمّ قال للنّاس : «سَلُوني عمّا شئتم ، فقال رجلٌ : مَن أبي ؟ ، قال : أبوك

حذافة ، فقام آخر ، فقال : مَن أبي يا رسول الله؟ ، قال : أبوك سالم مولى شيبة ، فلمّا رأى عمر ما في وجه رسول الله ﷺ من الغضب ، قال : يا رسول الله إنا نتوب إلى الله ... الحديث» .

- الثّاني : أنّها نزلت من أجل مسألةِ سائل سأل رسول الله ﷺ عن شيءٍ في أمر الحج . يدلُّ لهذا ما رُويَ عن عليّ بن أبي طالب ، وأبي هريرة ، وأبي أُمامة الباهلي، وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ في لفظهم اختلاف والمعنى واحد : أنّه ﷺ خطب النّاس فقال : «أيها النّاس كُتِبَ عليكم الحجّ، وقرأ عليهم : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧] ، قال عليٌّ[3] : فقالوا يا رسول الله : أفي كلّ عام؟، فسكت، فأعادوا ، قال : «لا ، ولو قلت نعم لوجبت» .وقال أبو هريرة : فقال عكّاشة بن محصن ، وقال مرّة : فقال : محصن الأسدي، وقال غيرُه : فقام رجلٌ من بني أسد ، وقال بعضهم : فقام أعرابي فقال : يا رسول الله : أفي كلّ عام؟ ، فسكت رسول الله ﷺ ، ثُمَّ قال : «مَن السّائل؟» ، فقيل: فلان، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تطيقوه، ولو تركتموه لهلَكتم»، وفي رواية أبي أُمامة[4] : «لو أنّي أحللت لكم جميع ما في الأرض من شيءٍ ، وحرَّمتُ عليكم مثل خفِّ البعير لوقعتم فيه» ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .... الآية﴾. وفي رواية أبي هريرة[5] : ثم قال : «ذروني ما تركتكم فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا

---

(١) صحيح البخاري (٢٥٩٧/٦) ح(٦٦٧٨) ، تحقيق : البغا ، وصحيح مسلم (١٨٣٢/٤) ح(٢٣٥٩)، تحقيق : عبد الباقي.

(٢) **رواية عليّ** ـ رضي الله عنه ـ **خرّجها** : الإمام أحمد في مسنده (١١٣/١) ح(٩٠٥) . والترمذي في سننه (١٧٨/٣) ح(٨١٤) ، تحقيق : أحمد شاكر، **وقال إثره:** «حديث حسن غريب» . وابن ماجه في سننه (٩٦٣/٢) ح(٢٨٨٤) ، والحاكم في المستدرك (٣٢٢/٢) ح(٣١٥٧. **وقال الشيخ الألباني** ـ رحمه الله ـ : «ضعيف ، **وعلّته** : عبد الأعلى وهو ابن عامر الثّعلبي ضعفه أحمد وأبو زرعه وغيرهما». انظر: إرواء السّبيل (١٥٠/٤) .

(٣) **هذه الرواية خرّجها** : الطبراني في المعجم الكبير (١٥٩/٨) ح(٧٦٧١) ، **وقال الهيثمي** : «إسناده حسن جيّد» .
انظر : مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد (٢٠٤/٣).

(٤) **هذه الرواية خرّجها** : الإمام مسلم في صحيحه (٩٧٥/٢) ح(١٣٣٧)، تحقيق : عبد الباقي .
وليس في هذه الرواية التي عند مسلم أنّ هذه القصّة كانت سبباً لنزول الآية ، وإنّما أتى ذلك في سنن الدار قطني ، وإسناده ليس بالقوي. انظر : سنن الدار قطني (٥٣٥/٢) ح(٢٦٧٠) .

(٤) في ظلال القرآن (٩٨٦/٢).

أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم،وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه».

- الثّالث : ما خَرَّجَه البخاري[1] عن ابن عباس ـرضي الله عنهما ـ قال : «كان قومٌ يسألون رسول الله ـﷺ ـ استهزاءً ، فيقول الرّجل : مَن أبي؟ ،ويقول الرّجل تضلّ ناقته : أين ناقتي؟، فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ حتى فرغ من الآية كلّها» .

- الرابع : أنّ قومًا سألوا رسول الله ـﷺ ـ عن البحيرة، والسَّائبة، والوصيلة، والحام، ونحو هذا من أحكام الجاهلية. فنزلت هذه الآية. رواه مجاهد عن ابن عباس ـرضي الله عنهما ـ وبه قال سعيد بن جُبَير، والحسن، قال ابن جبير: ألا أترى أنّ بعده: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾[١٠٣].

- الخامس : أنّ قومًا كانوا يسألون الآيات والمعجزات ، فنزلت هذه الآية . رُوي هذا المعنى عن عكرمة .

- السّادس: أنّها نزلت بسبب تمنيّهم الفرائض، وقولهم : وددنا أنّ الله ـ تعالى ـ أَذِنَ لنا في قتال المشركين ، وسؤالهم عن أحبّ الأعمال إلى الله . ذكره أبو سليمان الدّمشقي[2] .

وعند التأمّل في تلك المذكوراتِ أسبابَ نزول للآية الكريمة يظهر الآتي :

١. أنّ حديث عليٍّ ـرضي الله عنه ـ في الحجّ لا يصحّ الاحتجاج به سببَ نزول للآية؛ لضعف إسناده كما قد تقدّم.

٢. أنَّ خبر ابن عباس ـرضي الله عنهما ـ عند البخاري الآتي سبب نزول للآية يُقال فيه : هو رأي له ـرضي الله عنه ـ ، ويتأيّد هذا بأنه ـرضي الله عنه ـ خالف غيرَه من الصّحابة الكرام كأنس وأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ في أنّ سببها كثرة الأسئلة التي لا نفع فيها ولا طائل تحتها[3]. وهو مسند ومصرّح فيه بالنّزول فله حظّه الوافر من القبول لكن عند الترجيح يُقَدَّم عليه غيرُه ؛ لما سيأتي بيانُه .

٣. أنَّ حديث أبي موسى ـرضي الله عنه ـ الآتي عند مسلم ، وفيه : «سئل الرسول ـﷺ ـ عن أشياء كرهها» مجملٌ فسّره حديث أنس ـرضي الله عنه ـ.

٤. وما أتى من أنَّ سببها السؤال عن البحيرة وما عُطِفَ عليها ، وهو رواية مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، فيُشْكِلُ عليه أنّه «لا يخلو مِن أن يكون سؤاله عن معنى البحيرة ما هو ، أو هو عن جوازها ، وقد كانت البحيرة وما ذكر معها أسماء لأشياء معلومة عندهم في الجاهلية ، ولم يكونوا يحتاجون إلى المسألة عنها، ولا يجوز أيضاً أن يكون السّؤال وقع عن إباحتها وجوازها؛ لأنّ ذلك كان كفراً يتقرّبون به إلى أوثانهم ، فمن اعتقد الإسلام فقد علم بطلانه»[4].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ:«وأمّا القول الذي رواه مجاهد عن ابن عباس فقولٌ غير بعيد من الصّواب، ولكن الأخبار المتظاهرة عن الصّحابة والتابعين بخلافه، وكرهنا القول به من أجل ذلك»[5].

---

(٥) صحيح البخاري (٦٨/٦) ح(٤٦٢٢) ، ط دار الشَّعب .

(١) **انظر هذه الرواية المسوقة في سبب النزول وما قبلها مـا يلـي** : جامع البيان (٨٠/٧ـ٨٥)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٢١٧/٤ـ١٢١٩) ، وأسباب نزول القرآن (٢١٣ـ٢١٤) ، والنكت والعيون (٧٠/٢ـ٧١) ، ومعالم التنزيل (٦٩/٢)، وأحكام القرآن لابن العربي (٦٩٨/٢)، والمحرر الوجيز (٢٠٦/٥ـ٢٠٨)، وزاد المسير في علم التفسير (٢٦٢/٢ـ٢٦٣)، والجامع لأحكام القرآن (٣٠٦/٦ـ٣٠٨)،والتسهيل لعلوم التنزيل (٢٥٢/١) ، والبحر المحيط (٣٤/٤ـ٣٥)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٥/٢ـ١٤٦) ، والدر المنثور في التفسير المأثور (٥٩١/٢ـ٥٩٥)، وروح المعاني (٣٩/٧)، والمحرر في أسباب نزول القرآن (٥١١/١ـ٥١٥) .

(٢) انظر : المحرر في أسباب نزول القرآن (٥١٣/١) .

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٦٠٥/٢ـ٦٠٦) .

(٤) جامع البيان (٨٠/٧) .

٥. وأمّا ما ذُكِر عن عكرمة وأبي سليمان الدمشقي في ذلك ـ رحمها الله ـ،فمرغوبٌ عنه؛ إذ «في الصَّحيح والمسند كفاية»[١] عن غيره .

على أنَّ ثمة تخريجٌ لطيفٌ ذَكَرَهُ الطَّاهر ـ رحمه الله ـ يُقرِّب الفَجْوة بين تلك الأقوال بغضِّ النّظر عن صحيحها وسقيمها مِن أنّ «الآية تُليت عند وقوع هذه الأسئلة ، وإنّما كان نزولها قبل حدوثها، فظنّها الرّاوون نزلت حينئذٍ»[٢].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ : «ذُكِر أنَّ هذه الآية أُنزلت على رسول الله ـﷺ ـ بسبب مسائل كان يسألها إيّاه أقوامٌ؛ امتحانا له أحيانا، واستهزاءً أحيانا، فيقول له بعضهم : مَن أبي؟، ويقول له بعضهم إذا ضلَّت ناقته: أين ناقتي؟ ، فقال لهم ـ تعالى ذِكْرُهُ ـ : لا تسألوا عن أشياء من ذلك، كمسألة عبد الله ابن حذافة إيّاه: مَن أبوه؟ ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ يقول : إن أبدينا لكم حقيقة ما تسألون عنه سَاءَكم إبداؤها وإظهارها ، وبنحو الذي قلنا في ذلك تظاهرت الأخبار عن أصحاب رسول الله ـﷺ ـ»[٣].

قال أبو حيّان الأندلسي ـ رحمه الله ـ : «والظَّاهر من الرّوايات أنَّ الأعراب أَلَحُّوا عليه بأنواع من السّؤالات ، فَزُجِروا عن ذلك بهذه الآية»[٤].

غير أنَّ ذلك كلّه لا يمنع القول بأنّ المُقَدَّم في سبب نزول الآية هو خبر أنس ـرضي الله عنهـ وما ذُكِر مِن أسئلتهم له ـﷺ ـ عن مسائل ؛ لأمور[٥]:

- لصحة إسناده ، وشهرته الظَّاهرة .
- ولتصريحه بالنّزول .
- ولموافقته لسياق الآية القرآني[٦].
- مع ما يؤيّده من حديث سعد بن أبي وقّاص في الصَّحيح[٧] ـرضي الله عنهـ أنَّ النبيَّ ـﷺ ـ قال : «إنّ أعظم المسلمين في المسلمين جُرْمًا مَن سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ من أجل مسألته» . وكذلك ما رواه الدّار قطني والحاكم[٨] وغيرُهما من أنّه ـﷺ ـ قال : «إنَّ اللهَ فَرَضَ فرائضَ فلا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حدوداً فلا تَعْتدوها ، وحَرَّمَ أشياء فلا تنتَهكُوهَا ، وسَكَتَ عن أشياء ؛ رَحمةً بكم غَير نِسْيان ، فَلا تَسْألوا عَنهَا» ، وفي لفظ آخر : «إنَّ اللَّهَ حدَّ حُدودًا فَلاَ تَعتدُوها ، وَفرضَ لكم فرائِضَ فلاَ تُضيِّعُوهَا ، وَحرَّمَ أَشياءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا ، وتركَ أَشياءَ مِن غَيرِ نِسيَانٍ مِن رَبِّكُم، ولكن رحمةٌ مِنه لكم فاقبلُوها ولا تبحثوا فيها» .

قال الطَّبري ـ رحمه الله ـ : «وأولى الأقوال بالصّواب في ذلك قول مَن قال : نزلت هذه الآية من أجل إكثار السّائلين رسول الله ـﷺ ـ المسائل، كمسألة ابن حذافة إيّاه عن أبيه .... »[٩].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/٣٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٧/٦٦) .

(٣) جامع البيان (٧/٨٠) .

(٤) البحر المحيط (٤/٣٥) .

(٥) انظر : المحرر في أسباب نزول القرآن (١/٥١٥) .

(٦) **وذلك أنّ الله** ـ تعالى ـ **قال** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ ، وقد أخرج مسلم (٤/١٨٣٢) ح(٢٣٥٩)في حديث أنس ـرضي الله عنهـ الآنف **قال** : **قال** : ابن شهاب أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة **قال** : **قالت** أم عبد الله ابن حذافة لعبد الله بن حذافة : «ما سمعتُ بابن قطّ أعقّ منك؟ ، أأمنت أن تكون أُمّك قد قارفت بعض ما تُقارف نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين النّاس؟ ، قال عبد الله بن حذافة : والله لو ألحقني بعبدٍ أسود للحقته». **وقد أتى أيضاً في رواية البخاري** (٦/٢٥٩٧) ح(٦٦٧٨) **عن أنس** ـرضي الله عنهـ في سياق الحديث قال : «فقام إليه رجلٌ **فقال** : أين مدخلي يا رسول الله؟ ، قال : النّار» .
ومما لا شكّ أن عبد الله بن حذافة ـرضي الله عنهـ سيسوؤه حقّاً لو ظهر على لسان رسول الله ـﷺ ما خافت منه أُمّه ـ رضي الله عنها ـ .
وكذلك ذلك الرّجل عندما سأله عن مدخله فأخبره ـﷺ أنّه النّار كلّ ذلك مما يسوء السّائلين .

(٧) صحيح البخاري (٩/١١٧) ح(٧٢٨٩) ، ط دار الشعب، وصحيح مسلم (٧/٩٢) ح(٦٢٦٦)، ط دار الجيل .

(٨) سنن الدار قطني (٣/٥٥٧) ح(٢٧٢٨) ،والمستدرك على الصّحيحين (٤/١٢٩) ح(٧١١٤) ،
وقال النّووي عنه : «حديث حسن» . انظر : رياض الصّالحين (٦٢١) ح(١٨٤١) ، تحقيق : الألباني .
وقال الألباني عنه مرّة : «حسن لغيره» . انظر : تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (١/٣٣٨) ح(٣٣٨) .
وضعّفه في موضع آخر. انظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام (١/١٧) ح(٤).
وقال عنه ابن كثير في تفسيره (٢/١٤٧) : «صحيح».

(٩) جامع البيان (٧/٨٤) .

وبعدُ: فإنَّ مجموعة تلك الأحاديث المذكورة والتي قبلها إلى جانب النّصوص القرآنية «ترسم منهج الإسلام في المعرفة ، إنّ المعرفة في الإسلام إنّما تُطْلَبُ ؛ لمواجهة حاجة واقعة ، وفي حدود هذه الحاجة الواقعة ، فالغيب وما وراءه تُصان الطّاقة البشرية أن تُنفَق في استجلائه واستكناهه ؛ لأنّ معرفته لا تواجه حاجة واقعية في حياة البشرية ، وحسب القلب البشري أن يؤمن بهذا الغيب كما وصفه العليم به . فأمّا حين يتجاوز الإيمان به إلى البحث عن كنهه ، فإنّه لا يصل إلى شيءٍ أبداً ؛ لأنّه ليس مُزَوَّدَاً بالمقدرة على استكناهه إلاّ في الحدود التي كشف الله عنها ، فهو جهدٌ ضائعٌ ، فوق أنّه ضربٌ في التيه بلا دليل، يؤدّي إلى الضّلال البعيد .

وأمّا الأحكام الشّرعية فتُطلبُ ويُسأل عنها عند وقوع الأقضية التي تتطلّب هذه الأحكام، وهذا هو منهج الإسلام . ففي طوال العهد المكيّ لم يتنزّل حكمٌ شرعيٌّ تنفيذيٌّ ـ وإن تَنَزَّلَتِ الأوامر والنّواهي عن أشياء وأعمال ـ ، ولكن الأحكام التنفيذيّة : كالحدود ، والتعازير ، والكفارات لم تتنزّل إلاّ بعد قيام الدّولة المسلمة التي تَتَوَلَّى تنفيذ هذه الأحكام»[1].

قال الشّوكاني ـ رحمه الله ـ : «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ أي : لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسّؤال عنها ، ولا هي مما يعنيكم في أمر دينكم . فقوله : ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ في محلّ جرّ صفة لـ"أشياء"، أي : لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصّفة من كونها إذا بَدَتْ لكم، أي : ظَهَرَتْ وكُلِّفتُم بها ساءتكم، نهاهم الله عن كثرة مساءلتهم لرسول الله ﷺ؛ فإنَّ السّؤال عمّا لا يعني ولا تدعو إليه حاجةٌ قد يكون سبباً لإيجابه على السّائل وعلى غيره»[2] غيره»[2] .

ولعلّ سائلًا أن يقول : كيف نُهُوا في بدء الآية عن السّؤال ، ثُمّ أُبيح لهم ذلك في قوله : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾، فالجواب عن ذلك من وجوه[3]:

- الوجه الأول : أنَّ جملة : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ من جملة صفة (أشياء) ، والمعنى : لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآن تبد لكم ، وذلك مع وجود رسول الله ﷺ بين أظهركم ونزول الوحي عليه . «وأيُّ فرق أو أيُّ استحالةٍ في أن يُقال : لا تسألْ ؛ فإنّك أن سألتَ يُبيّن ذلك ما يسوؤك ، فالسّكوت عنه أولى بك، وأنَّ الله ـ تعالى ـ قد عفا عنها لك»[4].

وقال الألوسي ـ رحمه الله ـ : «﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أي : بالوحي كما يُنبئ عنه تقييد السّؤال بحين نزول القرآن ؛ لأنّ المساءة في الشّرطية الأولى معلّقة بإبداء تلك الأشياء لا بالسّؤال عنها، فعقّبها ـ جلّ شأنه ـ بما هو ناطقٌ باستلزام السّؤال عنها لإبدائها الموجب للمحذور ، فضمير (عنها) راجعٌ إلى تلك الأشياء ، وليس على حدّ : عندي درهمٌ ونصفه، كما وُهِم.

والمراد بها : ما لا خير لهم فيه من نحو التكاليف الصّعبة التي لا يطيقونها ، والأسرار الخفية التي قد يفتضحون بها ، فكما أنَّ السّؤال عن الأمور الواقعة مستتبعٌ لإبدائها ، كذلك السّؤال عن تلك التكاليف مستتبعٌ لإيجابها عليهم بطريق التشديد؛ لإساءتهم الأدب ، وتركهم ما هو الأولى بهم من الاستسلام لأمر الله ـ تعالى ـ من غير بحث فيه ، ولا تعرّض لكيفيّته وكمّيته» .

- الوجه الثّاني : أنّ السّؤال يقع على قسمين : أحدهما : السؤال عن شيءٍ لم يجر ذِكْرُهُ في الكتاب والسّنّة بوجه من الوجوه ، فهذا السّؤال منهيٌّ عنه بقوله : ﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾. والنّوع الثّاني من السّؤال : السّؤال عن شيءٍ نزل به القرآن لكن السّامع لم يفهمه كما ينبغي ، فهاهنا السّؤال مأذونٌ فيه، وهو المراد

---

(١) في ظلال القرآن (٢/٩٨٧).

(٢) فتح القدير (٢/٨١) .

(٣) **انظر تلك الوجوه فيما يلي** : المحرر الوجيز (٥/٢٠٨)، والتفسير الكبير "مفاتيح الغيب" (١٢/١٠٦ـ١٠٧)، والجامع لأحكام القرآن (٦/٣٠٩ـ٣١٠)، وفتح القدير (٢/٨١)، وروح المعاني (٧/٣٨ـ٣٩)، والتحرير والتنوير (٧/٦٧ـ٦٨).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٢/٧٠٠).

بقوله : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾،والفائدة في ذِكْر هذا القِسْم : أنّه لَمَّا منع في الجملة الأولى من السّؤال أَوْهَمَ أنّ جميع أنواع السّؤال ممنوعٌ منه ، فذكر ذلك ؛ تمييزا لهذا القسم عن ذلك القسم.

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «قال ابن عباس : معناه : لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم ؛ إمّا لتكليفٍ شرعيٍّ يلزمكم، وإمّا لخبر سوء ، كما قيل للذي قال : أين أنا؟، ولكن إذا نزل القرآن بشيءٍ ، وابتـــدأكم ربّكم بأمر ، فحينئذٍ إن سألتم عن تفصيله وبيانه بُيّنَ لكم وأُبدي ، فالضّمير في قوله : (عنها) عائدٌ على نوعها لا على الأولى التي نُهِيَ عن السّؤال عنها» .

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «المعني: وإن تسألوا عن غيرها فيما مسَّتْ الحاجة إليه، فحذف المضاف، ولا يصحّ حمله على غير الحذف . قال الجُرْجَاني : الكناية في(عنها) ترجع إلى (أشياء) أُخر ، كقوله ـ تعالى ـ :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ يعني آدم ، ثُمّ قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً ﴾ [المؤمنون:١٢ـ١٣] أي : ابن آدم؛ لأنّ آدم لم يُحْمَل نطفة في قرار مكين ، لكن لَمَّا ذكر الإنسان وهو آدم دلّ على إنسان مثله، وعُرف ذلك بقرينة الحال .

فالمعنى : وإن تسألوا عن أشياء حين يُنَزَّل القرآن من تحليل ، أو تحريم ، أو حُكْم ، أو مسَّت حاجتكم إلى التفسير ، فإذا سألتم فحينئذٍ تُبْدَ لكم، فقد أباح هذا النوع مِن السّؤال ، ومثاله : أنّه بَيَّنَ عدّة المطلقة والمتوفّى عنها زوجها والحامل ، ولم يَذْكر ذكر عدّة التي ليست بذات قُرء ولا حامل ، فسألوه فنزل : ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ....﴾ [الطلاق:٤] ، فالنّهي إذاً في شيءٍ لم يكن بهم حاجةٌ إلى السّؤال فيه ، فأمّا ما مسّت الحاجة إليه فلا» .

- الوجه الثّالث : أنّ جملة : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ عطفٌ على جملة : ﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ ﴾، وهي تفيد إباحة السّؤال عنها على الجُمْلَة؛ لقوله : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ ﴾، فجعلهم مخيّرين في السّؤال عن أمثالها ، وأنّ تركَ السّؤال هو الأَوْلَى لهم ، فالانتقال إلى الإذن رخصةٌ وتوسعةٌ ، وجاء بـ(إنْ)؛ للدّلالة على أنّ الأَوْلَى ترك السّؤال عنها ؛ لأنّ الأصل في (إنْ) أن تدلّ على أنّ الشّرط نادرُ الوقوع ، أو مرغوبٌ عن وقوعه .

قال الطّاهر ـ رحمه الله ـ : «وقوله : ﴿ حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ظرفٌ ، يجوز تعلّقه بفعل الشّرط وهو "تسألوا" ، ويجوز تعلّقه بفعل الجواب وهو ﴿ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ ، وهو أظهر؛ إذِ الظّاهر أنّ حين نزول القرآن لم يُجعل وقتاً لإلقاء الأسئلة بل جعل وقتاً للجواب عن الأسئلة ، وتقديمه على عامله ؛ للاهتمام ، والمعنى :

أنّهم لا ينتظرون الجواب عمّا يسألون عنه إلاّ بعد نزول القرآن ؛ لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ... إلى قوله : إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام:٥٠]، فنبّههم الله بهذا على أنّ النبيَّ يتلقّى الوحيَ من عـلاّم الغيوب ، فمن سأل عن شيءٍ فلينتـــظر الجواب بعد نزول القرآن ، ومَن سأل عند

نزول القرآن حصل جوابه عقب سؤاله» . واستضعف أبو حيان الأندلسي ـ رحمه الله ـ هذا الوجه[1] .

وتتجلّى من النصّ القرآني الكريم سعة رحمة الله ـ تعالى ـ، وعظيم مغفرته، وحلمه البالغ، كيف أنّه ﷻ في تلك الفترة المدنية ـ وهي حقبةُ التوجيه والإرشاد والتأديب ـ، وإنّها لفترةٌ من غير المستغرب أن تقع فيها زلاّت ، أو تكتنفها مخالفات ، لكنّه ـ تعالى ـ يتجاوز عن هاتيك الزّلات ، ويعفو عن تلكم المخالفات لأولئك الصَّحب الكرام ﷺ ؛ لِمَا يعلمه الحقّ ـ تعالى ـ مِن سبق قلّة عِلْمِهم في هذا الباب ، وهم الذين لا يزالون ﷺ يتدرجّون في مراقي الكمال ، ويُسارعون إلى حُسْن التأسّي ، وجميل الاتّباع ، والحقُّ ـ تعالى ـ حاشاه أن يؤاخِذَ بالزّلّة ابتداءً دونما تَقْدُمَةٍ من حجّةٍ ، أو إعذار منه ببعض بيان ، وهذا التجاوزُ البرُّ الرّحيمُ قِبالَةَ أفعال المتلقّين المتعلّمين من شأنه أن يوطِّدَ في أعماقهم اطمئناناً عجيباً، ويَشْحَذَ فيهم همّةً ناميةً للمواصلة، ويَخْلُقَ لديهم روحاً عاليةً ساميةً لا

(١) انظر : البحر المحيط (٣٦/٤) .

تنظر وراءها ـ إلاّ بقدر إصلاح أغلاطها ـ، ومن ثَمَّ فهي سائرةٌ تحثُّ الخُطَا؛ لإدراك غايتها، وتحقيق بغيتها .

وفي المراد بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ وجوه أظهرُها[1]:

- الأول : أن المراد بالعفو : ترك المؤاخذة ، والتجاوز عن الفعل، وعودُ ضمير (عنها) إلى المسائل، والآية على نظمها أنّها استئنافُ إخبار من الله ـ تعالى ـ عن عَفْوِهِ ـ تعالى ـ عن الصّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ ما سلف من إكثارهم المسائل، وإحفائهم الرّسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها، وإغضابهم له بسببها ؛ لأنّ ذلك لا يُناسب ما يجب له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التوقير، فلا يَعُودُوا بعدُ إلى مثل ذلك ، ويدلّ على هذا المعنى ختم الآية بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾.

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ : «﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ ﴾ أي : عن المسألة المدلول عليها بـ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ ﴾، والجملة استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أنَّ نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة ، بل لأنّها في نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة ، وقد عفا ـ سبحانه ـ عنها، وفيه من حثّهم على الجِدِّ في الانتهاء عنها ما لا يخفى، أي : عفا الله ـ تعالى ـ عن مسألتكم السّالفة حيث لم يفرض عليكم الحجّ في كلِّ عام؛ جزاءً لمسألتكم، أو المراد تجاوز عن عقوبتكم الأُخروية بسبب ذلك ، فلا تعودوا لمثله، وقد يحمل العفو عنها على معنى شامل للتجاوز عن العقوبة الدّنيوية والعقوبة الأُخروية، واختاره بعض المحققين» .

- الثّاني : أنّ المراد بالعفو : ترك التكليف فيها ، والمشقة عليكم بها ، فلم يُعَرِّف بها في حلال ولا حرام ، فهي معفوٌّ عنها ، فلا تبحثوا عنها ؛ فلعله إن ظهر لكم حكمها سَاءَكم . وفي ذلك توسعةٌ وتسهيل في إباحة ترك السؤال عن جملة المسائل التي لم يُؤَاخِذِ اللهُ ـ تعالى ـ بها الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ بالبحث عنها، ولا بالكشف عن حقائقها ، ومثله قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ [البقرة:١٨٧] ، فمعناه : سهّل عليكم . ومثله قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «عفوتُ لكم عن صدقة الخيل والرَّقيق»[2]، أي : خفّفت عنكم بإسقاطها .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «الحلال ما أحلّ الله، والحرام ما حرَّم الله، وما سكت عنه فهو عفوٌ»[3]. يعني : تسهيلٌ وتوسعةٌ . وكان عُبَيد بن عُمَير ـ رحمه الله ـ يقول : «إنّ الله أحلّ وحرَّم، فما أحلَّ فَاسْتَحِلُّوهُ، وما حرّم فاجْتَنبُوهُ، وترك بين ذلك أشياء لم يحلّلها ولم يحرّمها فذلك عفوٌ من الله ، ثُمّ يتلو هذه الآية»

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «و﴿ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ صفتان تناسب العفو، وترك المُبَاحَثَة، والسَّمَاحَة في الأُمور» .

وكثيراً ما يَجِدُ القارئُ لكتاب الله ـ تعالى ـ لفتَ نظر المؤمنين لِمَا كان عليه مَن قَبْلَنَا من الأمم الماضين سواءً كانوا يهوداً ، أو نصارى ، أو غيرهم ، والتذكيرَ ـ مع التحذير ـ بحال أولئك مع ربّهم ـ عز وجل ـ، أو مع أنبيائهم ـ عليهم السّلام ـ، أو مع التكاليف والشّرائع التي فُرِضَتْ عليهم، والأحكام التي أُنيطتْ بهم، مِن حيثُ أنَّ خَلَلاً واسِعَاً لازَمَهُم ، وتقصيراً ظاهراً أتاهم نحو تلك المُقَدَّمَاتِ، الأمر الذي انعكس سَلْباً وبصورةٍ فاضحةٍ مُخْزِيَةٍ على تحقيق عبوديتهم لله ـ تعالى ـ، فكيف يكون المرءُ عبداً لله حقَّاً وهو لا يأخذ شرائع ربّه وأوامره بحزم وجِدٍّ، ومن ثَمَّ يُسَارِع في التنفيذ والطَّاعة، إنَّ حال

(١) **انظر تلك الوجوه في الآتي** : أحكام القرآن (٦٠٧/٢) ، والمحرر الوجيز (٢٠٩/٥)، والتفسير الكبير "مفاتيح الغيب" (١٠٧/١٢)، والجامع لأحكام القرآن (٣١٠/٦) ، والبحر المحيط (٣٦/٤)، وفتح القدير (٨١/٢)، وروح المعاني (٣٩/٧ـ٤٠)، والتحرير والتنوير (٦٨/٧) .

(٢) **أخرج هذا الأثر** : أبو داود في سننه (٣٨٢/٢) ح(٣٨٠٠) ، **وقال الألباني عنه** : "صحيح الإسناد"، والحاكم في المستدرك (٣٠٧/٢) ح(٣٢٣٦)، و(١١٥/٤) ح(٧١١٣)، **وقال إثره** : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" .

(٣) **أخرجه** : عبد الرزاق بن همام في المصنف (٣٣/٤) ح(٦٨٧٩)، وأحمد في المسند (١٢١/١) ح(٩٨٤)، **وقال عنه محققه الأرناؤوط**: "صحيح لغيره"، والدّارمي في سننه (٤٦٧/١) ح(١٦٢٩) ، والترمذي في سننه (٩/٢) ح(٦٢٠)، تحقيق: بشار عواد معروف، وابن ماجه في سننه (٥٧٠/١) ح(١٧٩٠)، **وقال الألباني عنه** : "حسن".

أولئك الذين قصَّ القرآن علينا طرفاً من أخبارهم حال من اتخذ دينه لعباً ولهواً وغرَّته متع الحياة الفانية، ولم تكن عبوديته لربه إلاَّ بقدر ما عَلَّلَ نفسه الخائرة ـ التي بين جنبيه ـ أنَّ لها ربّاً وديناً ، وأنّه يعبدُ ذلك الربَّ ، وينهجُ ذلك الدّين، في حين أنَّ ذلك خداعٌ للنفس كبيرٌ، ووهمٌ في العقل عريض! .

وفي هذا الموطن بالذات استخدم القرآن نفس الأسلوب،فقال الحقُّ ـ تعالى ـ: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ وهذه الجملة استئناف بياني أتى جواباً لسؤال يثيره النّهي عن السّؤال ثُمّ الإذن فيه حين نزول القرآن أن يقول سائلٌ : إن كان السُّؤال في وقت نزول القرآن وأنّ بعض الأسئلة يسوء جوابه قوماً ، فهل الأولى ترك السؤال أو إلقاؤه ؟!.

فأُجيب بتفصيل أمرها بأنّ أمثالها قد كانت سبباً في كفر قوم قبل المسلمين[1] .

لقد «ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ـ من أهل الكتاب ـ ممن كانوا يُشَدِّدون على أنفسهم بالسّؤال عن التكاليف والأحكام ، فلمّا كتبها الله عليهم كفروا بها ، ولم يؤدُّوها ، ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليُسر الذي شاءه الله لعباده ما شدَّد عليهم ، وما احتملوا تبعةَ التقصير والكفران ... ، ولقد كان هذا شأنهم دائماً حتى حرَّمَ الله عليهم أشياء كثيرة ؛ تربيةً لهم وعقوبة!»[2]. «والأُمم قديماً طلبت التعمّق في الدّين من أنبيائها ثُمَّ لم تَفِ بما كُلِّفَتْ»[3]. وأمثال ما سألت عنه الصّحابة الرسولَ ـ ﷺ ـ كان قد سأله مَن كان قبلهم، والزّمن يُعادُ تارةً أُخرى، وما أشبه اللَّيلة بالبارحة !.

وفي الكَشَّاف ما نصّه : «الضَّمير في (سألها) ليس براجع إلى (أشياء)، حتى يجب تعديته بـ(عن)، وإنّما هو راجعٌ إلى المسألة التي دلَّ عليها ﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ ﴾، يعني : قد سأل هذه المسألة قومٌ من الأوّلين ، ﴿ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا ﴾ ، أي : بمرجوعها كافرين، أو بسببها ، وذلك أنّ بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أُمروا بها تركوها فهلكوا»[4].

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «ومعنى الآية : أنَّ هذه السُّؤالات التي هي تعنيتات، وطلب شَطَطٍ، واقتراحات، ومباحثات قد سألها قبلكم الأُمم ، ثُمَّ كفروا بها»[5].

وفي المراد بهؤلاء القوم أقوال كالآتي[6]:

- أنّهم الذين سألوا عيسى ـ عليه السلام ـ نزول المائدة ثم كفروا بها بعد أن شرط عليهم العذاب الذي لا يعذّبه أحداً من العالمين . قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، والحسن .
- أنّهم قوم صالح ـ عليه السلام ـ حين سألوا النّاقة، ثُمَّ عقروها بعد أن دخلوا على الاشتراط في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشُّعراء:١٥٥] . وبعد اشتراط العذاب عليهم إن مسوها بسوء: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٦] . قاله السُّدي .
- أنهم قوم موسى ـ عليه السلام ـ سألوا في ذبح البقرة وشأنها ، فلو ذبحوا بقرةً لأجزأت ، ولكنّهم شدّدوا فشدَّدَ الله عليهم . قاله ابن زيد .
- أنهم أيضاً قوم موسى ـ عليه السلام ـ سألوا أن يريهم الله جهرة، فصار ذلك وبالاً عليهم .
- أنّهم الذين قالوا لنبيٍّ لهم : "ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله" . قاله ابن زيد .
- أنّهم بنو إسرائيل مطلقاً كانت تسأل فإذا عرفت بالحكم لم تُقِر ولم تمتثل . قاله مقاتل .
- أنّهم قريش في سؤالهم أن يجعل الله لهم الصَّفا ذهباً ، وسؤالهم الآيات العديدة . قاله السّدي .

---

(٢) انظر : التحرير والتنوير (٦٩/٧).

(٣) في ظلال القرآن (٩٨٦/٢) .

(٤) المحرر الوجيز (٢١٠/٥) .

(٥) الكشاف (٣٠٣/٢).

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢٠٩/٥ـ٢١٠).

(٧) **انظر هذه الأقوال كلّها في** : جامع البيان (٨٥/٧ـ٨٦)، والمحرر الوجيز (٢٠٩/٥ـ٢١٠)، وزاد المسير (٢٦٤/٢) ، والبحر المحيط (٣٧/٤)، وروح المعاني (٤١/٧) .

«والصّحيح أنّه عامٌّ في الكلّ، ولقد كفرت العيسوية بعيسى وبالمائدة، والصّالحية بالنّاقة، والمكيّة بكلّ ما شهدت به من آية، وعاينت من معجزة مما سألته ومما لم تسأله على كثرتها ، وهذا تحذيرٌ مما وقع فيه مَن سبق من الأُمم»[1].

والتعبير القرآني بفعل ﴿ أَصْبَحُواْ ﴾ وأنه بمعنى : صاروا ، وهو في هذا الاستعمال مشعرٌ بمصير عاجل لا تريّث فيه ؛ لأنّ الصّباح أوّل أوقات الانتشار للأعمال ، فكأنّ القوم ما حَجَزَ بينهم وبين كفرهم بهاتيك المسائل إلاّ مجرد سؤالهم عنها ، فلمّا أُجيبوا بما لم يعجبهم أو يَسْتَرْوحُوا معه نَكَصُوا على الأعقاب، وكذا هو شأن أهل الضّلالة متابعة الأهواء ومرادات النفوس ، فكلّ ما يأتيهم مما لا يوافق أهواءهم كذّبوا به ، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النور:٤٨ـ٤٩][2].

وفي اتصال هذه الآية موضع البحث بما قبلها وجوهٌ[3]:

- الأوّل : أنّها متصلةٌ بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ لأنّ مِن الفلاح ترك السّؤال عمّا لا خير فيه ، وأُولوا الألباب ـ خاصة ـ أَحْرَى بهذا النّهج .

- الثّاني : أنّه ـ تعالى ـ لَمّا قال : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [٩٩] صار التقدير كأنّه قال : ما بلّغه الرّسول إليكم فخذوه، وكونوا منقادين له، وما لم يبلّغه الرّسول إليكم فلا تسألوا عنه، ولا تخوضوا فيه؛ فإنّكم إن خضتم فيما لا تكليف فيه عليكم فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض الفاسد من التكاليف ما يثقل عليكم ويشقّ عليكم .

- الثّالث : أنّه ـ تعالى ـ لمّا قال : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ ، وهذه دعوى منه للرّسالة، ثُمَّ إنّ الكفّار كانوا يُطالبونه بعد ظهور المعجزات بمعجزات أُخرى على سبيل التعنت، كما قال ـ تعالى ـ حاكياً عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء:٩٠ـ٩٣]، والمعنى : إنّي رسولٌ أُمِرْتُ بتبليغ الرّسالة والشّرائع والأحكام إليكم، والله ـ تعالى ـ قد أقام الدّلالة على صحّة دعوايَ في الرّسالة بإظهار أنواع كثيرة من المعجزات ، فبعد ذلك طَلَبُ الزّيادةِ من باب التحكّم ، وذلك ليس في وُسْعي، ولعلّ إظهارها يوجب ما يسوؤكم : مثل أنّها لو ظهرت فكلّ مَن خالف بعد ذلك استوجبَ العقاب في الدّنيا، ثُمّ إنّ المسلمين لَمّا سمعوا الكفّار يُطالبون الرّسول ـ ﷺ ـ بهذه المعجزات، وقع في قلوبهم ميلٌ إلى ظهورها ، فَعَرّفُوا في هذه الآية أنهم لا ينبغي أن يطلبوا ذلك؛ فربما كان ظهورها يوجب ما يسوؤهم .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٢/٦٩٩) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير (٧/٧٠) .

(٣) **انظر تلك الوجوه في** : التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" (١٢/١٠٤ـ١٠٥)، والبحر المحيط (٤/٣٥)، وروح المعاني (٧/٣٩) .

- الرّابع : أنَّ هذا متصلٌ بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ فاتركوا الأمور على ظواهرها ، ولا تسألوا عن أحوال مَخْفيَّةٍ إن تبْد لكم تسؤكم .

قال الطّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ في بدءِ تفسيره لهذه الآية : «استئناف ابتدائي ؛ للنّهي عن العودة إلى مسائل سألها بعض المؤمنين رسول الله ـ ﷺ ـ ليست في شؤون الدين ، ولكنها في شؤون ذاتية خاصّة بهم ، فنهوا أن يشغلوا الرّسول بمثالها بعد أن قدَّمَ لهم بيان مهمّة الرّسول بقوله : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ الصّالح لأن يكون مقدّمة لمضمون هذه الآية ، ولمضمون الآية السّابقة ، وهي قوله : ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ [١٠٠] ، فالآيتان كلتاهما مرتبطتان بآية : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ ، وليست إحدى هاتين الآيتين بمرتبطة بالأُخرى»[١].

وأمّا اتصالها بما بعدها من قوله : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [١٠٣] فبيّنٌ ؛ من حيث أنَّ هاتيك المذكورات في الآية قد وَرَدَ ما يدل على أنّهم سألوا عنها رسول الله ـ ﷺ ـ كما قد أتى آنفاً،وعليه فالمناسبة عندئذٍ ظاهرة .

ولعلَّ من الأوفق إيراد المعنى الإجمالي لهاتين الآيتين الكريمتين مما ذكره الشيخ ابن سعْدِي ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهما ، حيث قال : «ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بيّنت لهم ساءتهم وأحزنتهم ، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ـ ﷺ ـ عن آبائهم ، وعن حالهم في الجنّة أو النّار، فهذا ربما أنّه لو بيّن للسائل لم يكن له فيه خيرٌ، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة ، وكالسّؤال الذي يترتّب عليه تشديدات في الشّرع ربما أحرجت الأُمّة ، وكالسّؤال عمّا لا يعني ، فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها ، وأمّا السُّؤال الذي لا يترتّب عليه شيءٌ من ذلك فهذا مأمورٌ به كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ ﴾

أي : وإذا وافق سؤالكم محلّه فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن فتسألون عن آيةٍ أشكلت ، أو حكم خفي وجهه عليكم في وقتٍ يمكن فيه نزول الوحي من السّماء تُبدَ لكم، أي : تبيّن لكم وتظهر ، وإلا فاسكتوا عمّا سكت الله عنه . ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ ﴾ أي : سكت معافياً لعباده منها ، فكلّ ما سكت الله عنه فهو مما أباحه وعفا عنه . ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ أي : لم يزل بالمغفرة موصوفاً ، وبالحلم والإحسان معروفاً، فتعرّضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه . وهذه المسائل التي نُهيتُم عنها : ﴿ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ﴾ أي : جنسها وشبهها ، سؤال تعنُّتٍ لا استرشادٍ، فلمّا بيّنَتْ لهم وجاءتهم : ﴿ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ .... »[٢].

ويحسن في ختم هذا المبحث الإشارة إلى أنَّ السّلف ـ رحمهم الله ـ قد استدلُّوا بهاتيك الآية الكريمة على تحرّجهم، وكذا التحريج على غيرهم عن الأسئلة المستقبلية، والافتراضات العقلية مما لم يكن:

وذلك من نحو ما أخرجه الدّارمي بسندٍ جيّد[٣] إلى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ الفاروق ـ رضي الله عنه ـ كان يلعن مَن سأل عمّا لم يكن.

وعنده[٤] بسندٍ صحيح من طريق طاووس قال : قال عمر ـ رضي الله عنه ـ على المنبر : «أُحَرّجُ بالله على رجل سأل عمّا لم يكن، فإنَّ الله قد بيّن ما هو كائنٌ» .

وعنده[١] بسندٍ إلى زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أنّه كان يقول إذا سُئِلَ عن الأمر : "أكان هذا؟"، فإن قالوا : نعم قد كان ، حدَّثَ فيه بالذي يعلم، وإن قالوا : لم يكن ، قال : "فذروه حتى يكون" .

---

(١) التحرير والتنوير (٦٥/٧).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٥ـ٢٤٦) .
(٢) انظر : سنن الدّارمي (٦٢/١) ح(١٢١) .
(٣) انظر : سنن الدّارمي (٦٣/١) ح(١٢٤) .

وعنده[٢] بسندٍ إلى عمّار بن ياسر ـ ﷺ ـ وقد سئل عن مسألةٍ ، فقال : "هل كان هذا بعد ؟"، قالوا : لا، قال : "دعونا حتى يكون، فإذا كان تَجَشَّمْنَاهَا لكم" .

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «ما رأيتُ قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ما سألوه إلاَّ عن ثلاث عشرةَ مسألة حتى قُبِضَ ، كلّهنّ في القرآن ... ما كانوا يسألون إلاَّ عمّا ينفعهم»[٣] .

وقال مالك[٤] ـ رحمه الله ـ : «أدركت هذا البلد ـ يعني المدينة ـ وما عندهم علمٌ غير الكتاب والسّنة، فإذا نزلت نازلةٌ جمع الأمير لها مَن حضر من العلماء ، فما اتفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله ـ ﷺ ـ» .

وقد أورد القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيره في سياق بيانه للآية الكريمة ما نصّه : «روى مسلم[٥] عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «إنّ الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، وكره لكم ثلاثاً : قيل وقال، وكثرة السّؤال، وإضاعة المال» . قال كثير من العلماء : المراد بقوله: "وكثرة السّؤال": التكثير من السّؤال في المسائل الفقهية ؛ تنطُّعاً، وتكلُّفاً فيما لم ينزل، والأُغلوطات، وتشقيق المولّدات . وقد كان السّلف يكرهون ذلك ، ويرونه من التكلّف ، ويقولون : "إذا نزلت النّازلة وفِّق المسؤول لها"»[٦] .

إنَّ هذا المنهجَ المسْلُوكَ من سلفنا الصّالح «منهجٌ واقعيٌ جادٌّ ، يواجه وقائع الحياة بالأحكام المشتقة لها من أُصول شريعة الله، مواجهةً عمليّةً واقعيةً، مواجهةً تُقَدِّرُ المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملةً وملابساتها ، ثُمَّ تقضي فيها بالحكم الذي يقابلها ويغطيها ويشملها وينطبق عليها انطباقاً كاملاً دقيقاً، فأمّا الاستفتاء عن مسائل لم تقع، فهو استفتاءٌ عن فرض غير محدَّد، وما دام غير واقع فإن تحديده غير مستطاع، والفتوى عليه حينئذٍ لا تطابقه ؛ لأنّه فرضٌ غير محدَّد، والسؤال والجواب عندئذٍ يحملان معنى الاستهتار بجديّة الشَّريعة، كما يحملان مخالفةً للمنهج الإسلامي القويم»[٧] .

وفي مقابل هؤلاء ثَمَّةَ مَن وجّهَ ذلكم التَحَرُّج المُسْتَوْحَى من الآية بأنَّ «هذه الآية مصرّحَةٌ بأنَّ السّؤال المنهي عنه إنّما كان فيما تقع المساءة في جوابه، ولا مساءة في جواب نوازل الوقت فافترقا»[٨] .

ولعلَّ تشديد السَّلف ـ رحمهم الله ـ في ذلك كان أخذاً بمبدأ الحذر والسّلامة ، وحَدّاً من أسئلة المتعنتين ، وقطعاً لأطماعهم، فما كلُّ سائل بِمُسْتَبْصِر، ولا كلُّ مُنَاقِش براغبٍ في الوصول للحقِّ !، وصنيع الفاروق ـ ﷺ ـ يخرج من تلك المشكاة : مشكاة التَّثبت ، والحيطة ، وسدّ الذَّرائع .

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ : «والسؤال إذا لم يَحِلّ فلا يَحِلُّ منه الكثير ولا القليل ، وإذا كان جائزاً حلالاً فلا بأس بالإكثار منه حتى يبلغ إلى الحد المنهي عنه ، والله أعلم .

وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يكره كثرة المسائل ويعيبها، والانفكاك عندي من هذا المعنى والانفصال من هذا السؤال والإدخال : أنَّ السُّؤال اليوم لا يخاف منه أن ينزل تحريم ولا تحليل من أجله فمن سأل مسْتَفْهِماً ، راغباً في العلم ، ونَفْي الجهل عن نفسه ، باحثاً عن معنىً يجب الوقوف في الدِّيانة عليه ، فلا بأس به ؛ فشفاء العِيّ السُّؤال ، ومن سأل متعنِّتاً ، غير متفقه ولا متعلم ، فهذا لا يحلُّ قليل سؤاله ولا كثيره»[٩] .

وقال ابن العربي ـ رحمه الله ـ : «الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة، وإيضاح سُبُل النّظر، وتحصيل مقدّمات الاجتهاد، وإعداد الآلة المُعِينة على الاستمداد، فإذا عرضت نازلة أُتيتْ من بابها ، ونُشِدَتْ في مظانّها، والله يفتح في صوابها»[١٠] .

وبعد : فتلك جولةٌ يسيرةٌ مع تلك الآية الكريمة التي أضحت منهج حياة ليست فقط للصَّحابة الكرام ـ ﷺ ـ بل حتى مَن أتى بعدهم ، وهم يقرؤون ذلكم التوجيه الرّباني الرّحيم ، الذي بَيَّنَ الحقُّ العلّةَ

---

(٤) انظر : سنن الدّارمي (٦٢/١) ح(١٢٢) .

(٥) انظر : سنن الدّارمي (٦٢/١) ح(١٢٣) ، **قال الشيخ حسين سليم أسد** :«ورجاله ثقات غير أنه منقطع ؛ عامر الشَّعبي الرّاوي عن عمّار ـ ﷺ ـ لم يسمع منه» .

(٦) انظر : سنن الدّارمي (٦٣/١) ح(١٢٥)، **قال الشيخ حسين سليم أسد** :« وإسناده ضعيف» .

(٧) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٣٠٨/٦) .

(٨) صحيح مسلم (١٣٤٠/٣) ح(٥٩٣)، تحقيق : عبد الباقي .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٠٨/٦) .

(٢) في ظلال القرآن (٢/٩٨٧ـ٩٨٨).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٧٠٠/٢) .

(٤) التمهيد (٢٩٢/٢١) .

وقد أورد ذلك الكلام النّفيس عند شرحه لحديث : "وكثرة السّؤال" .

(٥) أحكام القرآن (٧٠٠/٢) .

للنَّهي فيه، وأشار للغاية من الزَّجر،وأنَّ المصلحةَ عائدةٌ جملةً وتفصيلاً على معشر المُتَلَقِّين في الدّنيا والآخرة، والصّحابة الكرام ـرضي الله عنهمـ خير مَن يَسْمَعُ فيمتثل، ويُنَادَى فيُجيب، ويُحَذَّر فيحذر، وإنَّهم بعدُ لقدوةٌ فاضلةٌ للأجيال بعدهم إلى يوم القيامة، في الكَفِّ عن سؤال ما لا فائدة فيه، ولا نفع يُرْجَى من ورائه.

المبحث الثّالث : تأديب المؤمنين بنهيهم عن ندائه ﷺ باسمه المجرّد.

جَرَت عادة النّاس ـ عند رفع الكُلْفَة بينهم ـ حين المناداة أن يُنادِي بعضُهم بعضا باسمه المجرد دون رعاية مقاماتٍ أو ألقابٍ أو نُعُوتٍ أو مناصب أو هيئاتٍ ، وإنّما الاسم فقط، وهم يَرَون أنّ هذا الأمر لا غَضَاضَةَ فيه، مع أنَّ هذا الفعل له دلالاته الحِوَارية، وإشاراته الاعتبارية، وَوَمَضَاتهُ المَسْلَكِيّة! .

والعاقل الأريب ينبغي أن يُبْقِيَ بينه وبين الآخرين مسافاتٍ معقولة، وخطوط رَجْعَةٍ مُعَدَّة، تتخذ أشكالاً عَمَلية تظهر في الأدب عند المخاطبات، ورعاية الأجمل في التصرّفات، والأليق من السّلوك، والأنسب من الانفعالات؛ إذ لكلٍّ منّا عالمه، وشخصيته، وطريقته في الحياة، التي تحقّق له الأمنَ في داخله، وتهَبهُ الشّعور النّفسي الرَّضِي في أعماقه، وله حِمَاهُ الممنوعُ، فلا يَجْمُل أن يتعدى الآخرون على هاتيك الحقوق والمظاهر بأيّ شكل كان، ولعلَّ مِن أوائل هذا التَعَدّي رفع الحرج، وإزالة الكُلْفَة، وتخطّي الحدود الآمنة، بدون مبرر مُعْتَبَر، يسلكون لذلك النّداء بالاسم المجرّد حينا، أو المضايقة بشتّى مظاهر السّلوك حينًا آخرَ!، ويزيد الطِّينَ بِلَّة، والأمر سوءًا حينما يكون هذا الفعلُ صادرا مِن صغير لكبير! أو من وَلَدٍ لوالِدٍ !،أو من جاهل لعالم!، أو من الرَّعية للرَّاعي!.

وإذْ كان في هذا مؤاخذةٌ أدبيةٌ في علاقاتِ النّاس على جمة العموم، فكونه لا يحسن مع أشرف وأطهر مَن مشى على ظهر هذه البسيطة مُحَمَّد ـﷺـ أولى وأحرى.

ولقد أدَّبَ الحقُّ ـ تعالى ـ جموعَ الصَّحابةِ المؤمنينَ ـرضي الله عنهمـ بآيةٍ كريمةٍ في هذا الباب، فقال ـ جلّ شأنُهُ ـ : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور] .

وهذه الآية وما قبلها «تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها ، هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلاّ حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها ، ثُمّ تستقرُّ في حياتها فتصبح تقليدًا مُتَّبعا وقانونا نافذا، وإلَّا فهي الفَوْضَى التي لا حدود لها»[1] .

وقد أتى في سبب نزولها ما رواه الضَحَّاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : «كانوا يقولون : يا مُحَمَّد، يا أبا القاسم؛ فأنزل الله : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾، فقالوا : يا نبيَّ الله ، يا رسول الله»[2].

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «هذه الآية مخاطبة لجميع معاصري رسول الله، وأمرهم الله أن لا يجعلوا مخاطبة رسول الله في النداء كمخاطبة بعضهم لبعض ، فإنَّ سيرتَهم كانت التَدَاعي بالأسماء ، وعلى غاية البداوة ، وقِلَّةِ الاهتبال ، فأمرهم الله ـ تعالى ـ في هذه الآية وفي غيرها أن يدعوا رسول الله ـﷺـ بأشرف أسمائه ، وذلك هو مقتضى التوقير والتعزيز ، فالمنبغي في الدُّعاء أن يقول :

يا رسول الله، وأن يكون ذلك بتوقير وخَفض صوتٍ وبِرٍّ، وأن لا يَجْري ذلك على عادتهم بعضهم في بعض . قاله مجاهد ، وغيره»[3].

وقال قتادة ـ رحمه الله ـ : «أمر الله أن يُهاب نبيّه ـﷺـ، وأن يُبَجَّل، وأن يُعَظَّم، وأن يُسَوَّد»[4].

وهناك أقوالٌ أخرى فُسِّرَت بها الآية أبرزها الآتي[1]:

---

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٥٣٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨/٢٦٥٤ـ٢٦٥٥) ، ولباب النقول في أسباب النزول (١٦٢) ، والدر المنثور (٥/١١٠) .

(٣) المحرر الوجيز (١١/٣٣٠ـ٣٣١). **وإلى هذا المعنى في الآية ذهب سعيد بن جبير ، وعلقمة ، والأسود ، وعكرمة** ـ رحمهم الله ـ.

انظر : زاد المسير (٥/٤٠٠) .

(٤) **انظر** : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨/٢٦٥٥)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٠٦).

١. قيل : نهاهم عن الإبطاء والتأخّر إذا دعاهم ، والدّعاء هنا يُراد به دعاء النبيّ ﷺ إيّاهم ليجتمعوا إليه في أمر جامع ، أو في قتال، وشبه ذلك ، فالمعنى : إنّ إجابتكم له إذا دعاكم واجبةٌ عليكم بخلاف إذا دعا بعضُكم بعضاً ، فهو كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤] . وإلى نحو هذا ذهب أبو مسلم، واختاره المبرّد ، والقفّال .

وَيُقَوِّي هذا القول : السّياق من كونه مناسباً للاستئذان والأمر الجامع ، ويدلّ عليه اللّحاق : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾، فهو قولٌ موافقٌ لمساق الآية ونظمها .

قال أبو السُّعود ـ رحمه الله ـ : «﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ﴾ استئنافٌ مقرّرٌ لمضمون ما قبله ، والالتفات ؛ لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه، أي : لا تجعلوا دعوتَه ـ عليه الصَّلاة والسّلام ـ إيّاكم في الاعتقاد والعمل بها ، ﴿ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ أي : لا تقيسوا دعاءه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ إيّاكم على دعاء بعضكم بعضاً في حال من الأحوال ، وأمر مِن الأُمور التي مِن جملتها المُسَاهَلةُ فيه ، والرُّجوعُ عن مجلسه ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ بغير استئذان، فإنّ ذلك من المحرَّمات»[٢].

٢. وقيل : لا تجعلوا دعاءه ﷺ ربَّه مثل ما يدعو صغيرُكم كبيرَكم ، وفقيرُكم غنيَّكم ، يسأله حاجةً فربما أجابه وربّما ردَّه ، فإنَّ دعاءه ﷺ مستجابٌ لا مردَّ له عند الله ﷻ ـ . ذكر ذلك الزَّمخشري ، وتبعه أبو السُّعود وجماعة .

٣. وقيل: لا تعتقدوا أنَّ دعاءه على غيره كدعاءِ غيره ، فإنَّ دعاءه مُسْتَجابٌ فاحذروا أن يدعوَا عليكم فَتَهْلَكُوا . قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، والحسن البصري، وعطية العوفي، ورُوِيَ عن الشَّعبي، واختاره الطَّبري ، ورجّحه بالسّياق .

قال الطَّبري ـ رحمه الله ـ : «وأولى التأويلين في ذلك بالصَّوابِ عندي التأويل الذي قاله ابن عباس ، وذلك أن الذي قبل قوله : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ نهيٌ من الله المؤمنين أن يأتوا من الانصراف عنه في الأمر الذي يجمع جميعهم ما يكرهه، والذي بعده وعيدٌ للمنصرفين بغير إذنه عنه، فالذي بينهما بأن يكون تحذيراً لهم سخطه أن يضطّره إلى الدُّعاء عليهم أشبه من أن يكون أمراً لهم بما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ من تعظيمه وتوقيره بالقول والدُّعاء» [٣]. ووافقه على هذا أبو السُّعود العِمَادي[٤].

وخالَفَهُمَا ابنُ عطية ، وابنُ جُزَيّ الكلبي ، وحجَّتُهُما أنّ لفظ الآية يدفعه .

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «ولفظ الآية يدفع هذا المعنى، والأول أَصحّ»[٥].

وقال ابن جُزَي ـ رحمه الله ـ : «ولفظ الآية بعيدٌ عن هذا المعنى على أنَّ المعنى صحيحٌ»[٦].

وقال الألوسي ـ رحمه الله ـ : «... ، وتعقّبه ابنُ عطية بأنَّ لفظ الآية يدفع هذا المعنى، وكأنّه أراد أنَّ الظّاهر عليه : «على بعض»، وقيل: إنّه يأباه ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾، وهو في حيّز المنع»[٧].

وليس الغرض في هذا الموضع الترجيح بين الأقوال التي سيقت في معنى الآية بِقَدْر ما المُهِمُّ كون الآية تحتمل المعنى الذي عُنونَ به هذا المبحث ، مع أنَّ تلك الأقوال المذكورة فيها الظَّاهرُ والأظهرُ ،

---

(٥) **انظر تلك الأقوال في** : جامع البيان (١٨/١٧٧)، والنكت والعيون (٤/١٢٨)، والكشاف (٤/٣٢٨) ، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/١٤١١ـ١٤١٢)، وزاد المسير (٥/٤٠٠)، والتسهيل لعلوم التنزيل (٢/١٠٠ـ١٠١) ، والبحر المحيط (٦/٤٣٦) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٠٦ـ٤٠٧)، وإرشاد العقل السَّليم (٤/٤٨٨)، وروح المعاني (٩/٤١٤).

(١) إرشاد العقل السَّليم (٤/٤٨٧ـ٤٨٨).

(٢) جامع البيان (١٨/١٧٨).

(٣) انظر : إرشاد العقل السَّليم (٤/٤٨٨).

(٤) المحرر الوجيز (١١/٣٣٠ـ٣٣١). **ومراده بالأوّل هنا ما سبق ذكره من أن المعنى** : لا تقولوا : يا محمد ، يا أبا القاسم .. .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/١٠١).

(٦) روح المعاني (٩/٤١٤) .

والقولُ الـمَذْهُوبُ إليه يَعْضُدُهُ سببُ نزول[1]، «وإذا كانت الآية تحتمل ألفاظها هذا المعنى صحَّ للمتدبّر أن ينتزِعَ هذا المعنى منها؛ إذ يكفي أن يأخذ مَن لاح له معنى ما لاح له»[2].

ولعلَّ أقوى مأخذٍ على القول الـمَذْهُوبِ إليه : أنّه قولٌ لا يُلائم السِّباق ولا اللِّحاق !.

غير أنّ المتأمّل يُدرك وجه ارتباط الآية بما قبلها ــ أعني قولَه ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ ...﴾[٦٢] ــ . مِن أنّ ذلك هو : الإرشاد إلى أنَّ الاستئذان ينبغي أن يكون بقولهم : يا رسول الله إنّا نستأذنك ونحوه ، وكذا خطاب مَن معه في أمر جامع إيّاه ـ ﷺ ـ ينبغي أن يكون بنحو : يا رسول الله ، لا بنحو يا محمّد ، ويكفي هذا القدر من الارتباط بما قبلُ ، ولا حاجة إلى بيان المناسبة : بأنَّ في كلٍّ منهما ما يُنافي التعظيم اللائق بشأنه العظيم ـ ﷺ ـ[3].

ويذهب البقاعي ـ رحمه الله ـ إلى أبعد من ذلكم الرَّبط ، فَيَسْلُكُ هذه الآية الكريمة مع بعض مقاصد سورة النّور على جهة العموم، وهو ربطٌ بديع ــ لا يُستغرب منه ــ؛ فيقول : «ولـَمَّا أظهرت هذه السُّورة بعمومها، وهذه الآيات بخصوصها، مِن شَرفِ الرَّسول ما بَهَرَ العقول؛ لأجل ما وقع للمنافق ـ يعني : ابن سلول وحادثة الإفك ـ من التجرؤ على ذلك الجناب الأَشَمّ ، والمنصب الأتَمّ ، وعُلِمَ منه أنَّ له ـ ﷺ ـ في كلّ أمره وجميع شأنه خصوصية ليست لغيره ، صَرَّحَ بذلك ؛ تفخيماً للشأن ، وتعظيماً للمقام ؛ ليتأدب مَن ناضل عن المنافق ، أو تَوَانَى في أمره فَقَصَّر عن مَدَى أهل السَّوابق ، فقال منبِّهاً على أنَّ المصائبَ سببٌ لإظهار المناقب، أو إشهار المعايب : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ ﴾، أي : أيها الذين آمنوا، ﴿ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ ﴾؛ أي : لكم الذي يوقعه بينكم ، ولو على سبيل العموم ، في وجوب الامتثال ، ﴿ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾؛ فإنَّ أمرَه عظيمٌ، ومخالفته استحلالا كفر، ولا تجعلوا أيضا دعاءكم إياه كدعاء بعضكم لبعض بمجرد الاسم ، بل تأدبوا معه بالتفخيم والتبجيل والتعظيم، كما سَنَّ اللهُ بنحو : يا أيّها النبيُّ ، ويا أيّها الرّسولُ، مع إظهار الأدب في هيئة القول والفعل : بخفض الصَّوتِ والتواضع»[4].

وأمّا مناسبتها لما بعدها من قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾[٦٤] فظاهرةٌ أيضا مِن أنَّ مِن جملة ما يعلمه الله ـ ﷻ ـ ما عليه المخاطبون بتلك الآية : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾ هل امتثلوها فقاموا بها، أم قَصَّرُوا في ذلك ـ وحاشاهم ﵃ـ، وسينبئهم الحقُّ ـ تعالى ـ بما عملوا .

قال الطّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ : «فالخطاب للمؤمنين الذين تحدّث عنهم بقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ﴾ الخ ، نُهُوا عن أن يَدْعُوا الرّسول عند مناداته كما يدعو بعضُهم بعضاً في اللّفظ ، أو في الهيئة :

فأمّا في اللّفظ : فبأن لا يقولوا : يا محمّد ، أو يا بن عبد الله ، أو يابن عبد المطلب ، ولكن يا رسول ، أو يا نبي الله ، أو بكنيته يا أبا القاسم . وأمّا في الهيئةِ : فبأن لا يدعوه من وراء الحجرات، وأن لا يُلِّحوا في دعائه إذا لم يخرج إليهم ، كما جاء في سورة الحجرات ؛ لأنّ ذلك كلّه من الـجَلافَةِ التي لا تليق بعظمة قدر الرّسول ـ ﷺ ـ، فهذا أدبٌ للمسلمين ، وسدٌّ لأبواب الأذى عن المنافقين»[5].

---

(٧) انظر : قواعد الترجيح عند المفسِّرين (٢٤١/١) .

(٨) التحرير والتنوير (٣٠٩/١٨) .

(١) انظر : روح المعاني (٤١٥/٩) .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور (٢٨٩/٥). وما بين المحصورتين معترضةٌ من كلام الباحث .

(١) التحرير والتنوير (٣٠٩/١٨) .

«في هذا النّهي : تحريم ندائه ـﷺـ باسمه ، والظّاهر استمرار ذلك بعد وفاته إلى الآن»[1].

وإذا كان الحقُّ ـ تعالى ـ قد وجّه معشر الصّحابة الكرام ـرضي الله عنهمـ إلى ذلكم الأدب في خطابها للنبيّ ـﷺـ وهي تستأذن منه لِدَرْكِ حَاجَاتِهَا ، وقضاء مصالحها ، فإنَّ فئةً مُندَسَّةً في الصفِّ تزعم الإيمان وأنّى لها به ، تأتي الأحداثُ فتكشفُ عَوَارَها ، وتتوالى المواقف فتزيل تمويهَهَا ، وإنها في هذا الموطن العصيب ليست تكترث بمسألة الاستئذان المُسَبَّق قبل الانصراف، ولا يَعْنيهَا هذا الأمر من قريب أو بعيد . ولذا أتى النصُّ القرآني «يُحَذِّر المنافقين الذين يتسلّلون ويذهبون بدون إذن، يلوذ بعضهم ببعض، ويَتَدَارَى بعضُهم ببعض ، فَعَينُ الله عليهم ، وإن كانت عينُ الرّسول لا تراهم : ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ﴾»[2].

قال البقاعي ـ رحمه الله ـ : «ولَمَّا كان بعضُهم يظهر المؤالَفَة، ويبطن المخالفة، حَذَّرَ مِن ذلك بشمول علمه وتمام قدرته ، فقال مُعَلِّلاً مؤَكِّداً محقِّقاً مُعَلِّماً بتجديد تعليق العلم الشُّهودي كلَّمَا جَدَّدَ أحدٌ خيانة؛ لدوام اتصافه بإحاطة العلم من غير نظر إلى زمان : ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ﴾،أي : الحائز لجميع صفات المجد إن ظننتم أنَّ ما تفعلونه من التستر يُخْفي أمرَكُم على رسوله ـﷺـ، فهو ـ سبحانه ـ يعلم ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ ﴾، وعَيَّنَ أهلَ التوبيخ بقوله : ﴿ مِنكُمۡ ﴾، أي : يتكلَّفُونَ سَلَّ أنفسهم ؛ ليجعلوا ذهابهم في غاية الخفاء، ولعله أدخل ﴿ قَدۡ ﴾ على المضارع ؛ ليزيد أهل التحقيق تحقيقاً، ويفتح لأهل الرِّيَبِ إلى الاحتمال طريقاً، فإنّه يكفي في الخوف من النكال طروق الاحتمال»[3] . وفي قوله : ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ﴾ معنى التهديد بالمجازاة[4].

والقرآن الكريم استعمل في وصف حال أولئك لفظتين:

﴿ يَتَسَلَّلُونَ ﴾، و﴿ لِوَاذٗاۚ ﴾،وهذا غاية البلاغة والدّلالة

إذ التَّسَلُّل : الخروج والانصراف قليلاً قليلاً عن الجماعة في خفية ، واللِّوَاذ : أن يستتر الشّخص ويَتَحَصَّن بشيءٍ ؛ مخافة أن يُرْمَى بالأبصار[5]. «شبّه تستّر بعضهم ببعض عن اتّفاق وتآمر عند الانصراف خفيةً بِلَوْذِ بعضهم ببعض ؛ لأنَّ الذي ستر الخارج حتى يخرج هو بمنزلة مَن لاذَ به أيضاً ، فجُعِلَ حصول فِعْلِهِ مع فعل اللاَّئذ كأنّه مفاعلة من اللَّوْذِ»[6].

وبالجملة ففي تَيْنِكَ اللّفظتين معنى الرَّوغان والمُخَادَعَة،«وهو تعبير يصوّر حركة التَخَلِّي والتَسَلُّل بحذر من المجلس، ويتمثَّلُ فيها الجبن عن المواجهة، وحقارة الحركة والشّعور المصاحب لها في التفوس»[7]. وهذا ليس بمستنكر على فئة المنافقين في العصر النّبوي وحتى الآن! .

والآيةُ الكريمةُ لم تحَدِّدْ هاتيك المواطن التي تجاسر المنافقون فتسللوا منها لواذاً ، وإن كان قد أتى عن أهل التفسير ذكر ذلك ، وتَنَوَّعَ سَرْدُهم ـ رحمهم الله ـ لتلك المواضع ، ولا مانع من الحمل فيها على الكلّ؛ إذ المنافقون لا اعتبار عندهم لزمن دون زمن، أو حَدَثٍ دون آخر، أو حتى موضع وموضع؛ فَهُمْ مَرَدُوا على عدم الاكتراث بالزَّمان والمكان والأحداث، وأَذْكَى ذلك طبيعةُ نفوسهم العبثية، ففي الحقيقة ما ثَمَّةَ قيمةٌ تُصَان ، ولا مبادئ لديهم تُرْعَى فتُحْتَرَم ! .

قال مقاتل بن حيّان ـ رحمه الله ـ : «هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث ـ أي: الخطبة ـ في يوم الجمعة ، فيلوذون ببعض أصحاب مُحَمَّد ـﷺـ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرَّجل أن يخرج من المسجد إلاّ بإذن من النبيّ ـﷺـ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبيّ ـﷺـ، فيأذن له من غير أن يتكلّم الرّجل ؛ لأنّ الرّجل منهم كان إذا تكلّم والنبيّ ـﷺـ يخطب بطلت جمعته»[8].

---

(٢) روح المعاني (٩/٤١٤).
(٣) في ظلال القرآن (٤/٢٥٣٥).
(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور (٥/٢٨٩) .
(٥) انظر : التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" (١٨/٤٠) .
(٦) **انظر في ذلك** : معاني القرآن وإعرابه (٤/٥٦)، والمحرر الوجيز (١١/٣٣١) ، والفريد في إعراب القرآن المجيد (٣/٦١٦ـ٦١٧)، والبحر المحيط (٦/٤٣٧)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسّور (٥/٢٨٩).
(٧) التحرير والتنوير (١٨/٣١٠).
(٨) في ظلال القرآن (٤/٢٥٣٥) .
(١) **انظر هذا الوجه وما بعده في** : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم(٨/٢٦٥٦) ، والبحر المحيط (٦/٤٣٧) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٠٧)، وروح المعاني (٩/٤١٥).

وقيل : كانوا إذا كانوا معه في جماعةٍ لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيّبوا عنه فلا يراهم . قاله السّدي .

وقيل : فِراراً من الصّف والجهاد . قاله الحسن ، ومجاهد ، وسفيان.

وقيل : كان ذلك في حفر الخندق ينصرف المنافقون بغير إذن، ويستأذن المؤمنون إذا عرضتْ لهم حاجة . وقيل : يتسللون على رسول الله ـ ﷺ ـ ، وعلى كتابه، وعلى ذِكْره .

والحقُّ أنَّ من تَجَاسَرَ على مثل هذه المواقف ، وتخطَّى الحدود والآداب والمَأذُونَات فسرعان ما يأتيه وعيدٌ قاصمٌ، وتحذيرٌ بليغ، وعقوبةٌ تعيش في أعماق نفسه ، وتصحبه في سائر أيامه ، فتفسد عليه متعَ الدُّنيا فضلاً عن نعيم الآخرة ، وما لم يتغمده الله ـ تعالى ـ بواسع رحمته ، ويوفقه للتوبة النّصوح وإلاّ فهو الشّقاء المُضْني، ونادراً ما يتنبّه معشر المنافقين ـ وكذا مَن شابههم من المؤمنين بورود بعض مواردهم ـ إلى أنّهم معاقبون الدّهر أبداً ، ولا أشدَّ في عُرف أهل الإيمان والتقوى من أن يُحَالَ بين قلب المرء وبين الحقّ : اعتقاداً وعملاً به، حتى يُضحي صدر المرء ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَدُ في السَّماء ، ويمسي ويصبح ويتقلّب بمنةً ويسرةً وقلبه صَخْرة صمّاء ، لو صُبَّتْ عليها كلُّ قطرة ماء ما نَفَعَتْ فيها ولا أثّرتْ، ولو سَمِعَ كلَّ داعي حقٍّ ما زَادَه ذلك إلاّ ثفُوراً وصُدُوداً ؛ استكباراً في الأرض ومكر السَّيئ، ولعلَّ الأدهى أن يَرَى نفسَه على الصّوابِ ويَرَى غيرَه على جادة الخطأ ، وكفى بذلك ـ لعمرو الله ـ عقوبة فاتكة، ومَكْراً كِباراً بِمَن نَسِيَ ربَّه العظيم، ـ عياذاً بالله من عاقبة السّوء ـ.

وهؤلاء ممن تقدّم وصف حالهم وفعالهم هدَّدهم الله ـ جَلَّ جلاله ـ بقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، وقريباً من المعنى الآنف قول ربّنا ـ تعالى ـ : ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤ـ٢٥] ، وفي نفس السّورة قول ربّنا : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، وليستِ البُغْيَةُ في هذه العاجلة الاستقصاء بجمع الآيات في هذا الباب والمعنى ، وإن كانت الآيات في ذلك متكاثرة متنوعة لمن تدبَّر وتأمّل !.

وأتى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ ؛ لترتيب الحذر ، أو الأمر به على ما قبلها من علمه ـ تعالى ـ بأحوالهم ؛ فإنّه مما يوجب الحذر البتة .

والمخالفة كما قال الرّاغب : «أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله»[1]. والأكثر استعمالها بدون "عن"، فيقال : خالف زيدٌ عمراً، حتى قال الأخفش وأبو عبيدة : هي هنا زائدة ، والمعنى : فليحذر الذين يخالفون أمره[2].

وإذا استعملت ـ أي: المخالفة ـ بـ"عن" فذاك على تضمين معنى الإعراض .

وقيل : على تضمين معنى الخروج، أي : يُخالفون معرضين ، أو خارجين عن أمره .

وقيل : على تضمين معنى الصَّدّ .

وقال بعضهم : عُدِّيَ بـ"عن" ؛ لِمَا في المخالفة من معنى التباعد والحيد، كأنّه قيل : الذين يحيدون عن أمره بالمخالفة ، وهو أبلغ من أن يُقال : يخالفون أمره[3].

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «وقوله : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ معناه : يقع خلافهم بعد أمره ، وهذا كما تقول : كان المطر عن ريح»[1].

---

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٢٩٤) .

(٣) **انظر** : النكت والعيون (١٢٩/٤)، وروح المعاني (٤١٦/٩).

(١) **انظر في ذلك** : الفريد في إعراب القرآن المجيد (٦١٧/٣)، والبحر المحيط (٤٣٧/٦) .

وفي هاء الكناية من قوله : ﴿ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾ قولان[٢]:

- أنّها ترجع إلى الله ـ تعالى ـ . قاله مجاهد .
- أنها ترجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، قاله قتادة .

قال الباحث : والقولان متقاربان في الواقع، ومُؤدَّاهُما واحد؛ كون النبيُّ ـ ﷺ ـ هو المبلّغ عن ربّه العظيم، وهو ـ ﷺ ـ لا ينطق عن الهوى، والأُمّة مُتَعَبّدةٌ ربَّها بطاعته ـ ﷺ ـ، وفي الجملة : ما المخالفة عن أمر رسول الله ـ ﷺ ـ في الحقيقة إلاّ مخالفة لأمر الله ـ تعالى ـ .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾ أي : عن أمر رسول الله ـ ﷺ ـ، وهو سبيله ، ومنهاجه، وطريقته، وسنته، وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِلَ ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً مَن كان، كما ثبت في الصَّحيحين وغيرهما أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»[٣]، أي : فَلْيَحْذَر ولْيَخَش مَن خالف شريعة الرّسول باطناً وظاهراً»[٤].

وقد تعدَّدت أقوال السّلف ـ رحمهم الله ـ في نوع هذه الفتنة التي هُدِّدَ بها هؤلاء المخالفون، وموقعها من قلوبهم ، أو أجسادهم ، أو معايشهم، وهنا أيضاً يُقال : إنَّ الخلاف فيها هو من قبيل اختلاف التنوّع ، ولا مانع من حمل الآية على هاتيك المعاني كلّها؛ إذ الأصل العموم ما لم يأتِ مخصّص ، بل كون تلك الفتنة كَفَّ النصُ القرآني عن بيانها أبلغُ في التحذير، وأَوْقَعُ في الوعيد والتهديد ؛ حتى تذهب النّفوس عامّة ـ ونفوسهم المريضة خاصّة ـ كلّ مذهب في تَصَوّرها والتَوَجُّس منها ، وهذا أبلغ في التربية والتأديب . وقد وَرَدَ عنهم ـ أي : السّلف ـ في ذلك :

- أنها : الضَّلالة، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما .
- وقيل : القتل ، روي أيضاً عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ .
- وقيل : البلاءٌ والمحنة في الدّنيا ، قاله مجاهد .
- وقيل : الكفرٌ ، قاله السّدي ، ومقاتل ، ورويَ أيضاً عن مجاهد .
- وقيل : عقوبة ، قاله ابن كامل .
- وقيل : التسليط عليهم بجور السُّلطان . قاله جعفر الصّادق .
- وقيل : إسباغ النِّعم ؛ استدراجاً . قاله الجراح .
- وقيل : قسوة القلب عن معرفة المعروف والمنكر . قاله الجُنَيد .
- وقيل : الطّبع على القلوب . قاله بعضُهم .
- وقيل: ظهور نفاقهم ، قاله الحسن .
- وقيل: الزّلازل والأهوال ، قاله عطاء .

قال أبو حيان ـ رحمه الله ـ : «وهذه الأقوال خرجت مخرج التمثيل لا الحصر، وهي في الدّنيا»[٥] .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ :«﴿ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾، أي : في قلوبهم من كفر، أو نفاق ، أو بدعة»[٦].

وقال البقاعي ـ رحمه الله ـ : «﴿ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾ ، أي : شيء يخالطهم في الدُّنيا فَيُحيل أمورَهم إلى غير الحالة المحبوبة التي كانوا عليها»[٧] .

---

(١) **انظر هذا النّقل ، والأقوال قبله في** : جامع البيان (١٧٨/١٨)، والنكت والعيون (١٢٩/٤)، وزاد المسير (٤٠١/٥)، والتفسير الكبير "مفاتيح الغيب" (٤٢/١٨)، والبحر المحيط (٤٣٧/٦)، وروح المعاني(٤١٦/٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٠٧/٣) .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور (٢٨٩/٥ـ٢٩٠) .

(٢) المحرر الوجيز (٣٣١/١١) .

(٣) انظر : زاد المسير (٤٠١/٥) .

(٤) صحيح البخاري (٩٥٩/٢) ح(٢٥٥٠)، تحقيق : البغا ، وصحيح مسلم (١٣٤٣/٣) ح(١٧١٨)، تحقيق : عبد الباقي .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٠٧/٣) .

وكذا قيل في معنى : ﴿ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فمنهم مَن جَعَلَه في الآخرة : بعذاب جهنّم .

ومنهم مَن جعله في الدّنيا : بقتل، أو حَدٍّ، أو حبس، أو نحو ذلك[1].

وما قيل في سابقه يُقال هاهنا ، ولا مانع من أن يُجْمَعَ لهم العذابان : عذاب الدّنيا والآخرة، والمنافقون عند الحقيقة يَتَقَلَّبُونَ بين ذلك ، «وإنّما ردَّد الله ـ تعالى ـ حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين؛ لأنّ ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدّنيا ، وقد يعرض له ذلك في الدّنيا، فلهذا أورده ـ تعالى ـ على سبيل الترديد»[2]. «وإنّه لتحذيرٌ مرهوب، وتهديد رعيب ، ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾ ويتبعون نهجاً غير نهجه، ويتسلّلون من الصفّ ؛ ابتغاء منفعةٍ، أو اتقاء مضرَّة، ليحذروا أن تصيبهم فتنةٌ تضطرب فيها المقاييس ، وتختلُّ فيها الموازين، وينتكثُ فيها النّظام، فيختلط الحقُّ بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وتفسد أُمور الجماعة وحياتها، فلا يأمن على نفسه أحدٌ ، ولا يقف عند حَدّه أحدٌ، ولا يتميّز فيها خيرٌ من شرٍّ، وهي فترةٌ شقاء للجميع،﴿ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدّنيا ، أو في الآخرة؛ جزاء المخالفة عن أمر الله، ونهجه الذي ارتضاه للحياة»[3].

ويَحْسُنُ بعدَ هذا العَرْض ذِكْرُ المعنى الإجمالي للآية الكريمة موضع البحثِ ، وأنَّ معناها ما قاله الشيخ ابن سِعْدي ـ رحمه الله ـ : «لا تجعلوا دعاء الرّسول إيّاكم ودعاءَكم للرّسول كدعاء بعضكم بعضاً ، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً ، حتى إنّه تجب إجابةُ الرّسول ـ ﷺ ـ في حال الصّلاة ، وليس أحدٌ إذا قال قولاً يجب على الأُمّة قبول قوله والعمل به إلاّ الرّسول ؛ لعصمته ، وكوننا مخاطبين باتّباعه، قال ـ تعالى ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾.

وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرّسول كدعاء بعضكم بعضاً ، فلا تقولوا : "يا محمّد" عند ندائكم ، أو "يا محمّد بن عبد الله" ، كما يقول ذلك بعضكم لبعض ، بل من شرفه وفضله وتميُّزه ـ ﷺ ـ عن غيره أن يُقال : يا رسول الله، يا نبيَّ الله .

﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ﴾

لَمَّا مدح المؤمنين بالله ورسوله الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه توعّد من لم يفعل ذلك وذهب من غير استئذان فهو وإن خفيَ عليكم بذهابه على وجه خفيّ، وهو المراد بقوله : ﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ﴾ أي : يلوذون وقت تسلّلهم وانطلاقهم بشيءٍ يحجبهم عن العيون ، فالله يعلمهم وسيجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء ، ولهذا توعّدهم بقوله : ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾ أي : يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونه ؟!، وإنّما ترك أمر الله من دون شغل له . ﴿ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾ أي : شركٌ وشرٌّ ، ﴿ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾»[4].

وبعد : فإنَّ الرّسول ـ ﷺ ـ بما آتاه الله من الأخلاق العالية، والسَّجايا الرَّاقية، والسُّهولة في المعاملة، واللُّيونة الطَبَعِيّة، والإعذار لكلّ ذي عُذْر، وهو الـمُرَبّي الرَّفيق، والنّاصح الشَّفيق، إلاَّ أنّه يَظَلّ النبيّ الكريم ـ ﷺ ـ، والرّسول الأمين الذي ينبغي أن تمتليءَ القلوبُ بِهَيبَتِهِ، وتَغْمُرَ الأفئدةُ بتوقيره ، وتكتحلَ العيونُ بتعظيمه ، وتُفَخِّمَ الصّدور بإجلاله حتى تأخذَ عنه الدّين بِجِدٍّ ، وتقبلَ الأمر منه بعزيمةٍ ومَضَاء، وهذا أمرٌ مطلوب في العملية التربوية بين الـمُعَلِّمِ والـمُعَلَّمِ ، والأستاذ والطّالب بدونها تكونُ الأمورُ ناقصةً عَرْجَاء ، ويختلُ ميزانُ التَلَقّي والتَأسّي ، «فلا بُدَّ من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ؛ حتى تستشعر توقير كلّ كلمةٍ منه، وكلّ توجيه، وهي لفتةٌ ضروريةٌ، فلا بُدَّ للمربيّ من وقار، ولا بُدَّ للقائد من هيبةٍ، وفرقٌ بين أن يكون هو متواضعاً هيناً ليّناً ، وأن ينسوا هم أنّه مربّيهم ، فيدعوه دعاء بعضهم بعضاً، يجب أن تبقى للمربّي منزلةٌ في نفوس مَن يُربّيهم يرتفع بها عليهم في قرارةِ شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير»[5].

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (٥٧٦ـ٥٧٧) .
(٢) في ظلال القرآن (٢٥٣٥/٤) .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٠٧/٣) .
(٥) التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" (٤٢/١٨) .
(٦) في ظلال القرآن (٢٥٣٥/٤ـ٢٥٣٦) .

ولعلَّ هذا المنهج التربوي هو أحد ثمرات ذلكم التوجيه الرّباني الكريم الآنف لمجمل الصّحابة الكرام ﷺ، كيف أنّهم عايشوها في حال كَرْبهم وسَعَتهم، ورضاهم وحزنهم، ناهيك عن تلك المقارنة التي زَخَرَ بها النصُّ القرآني بين المؤمنين الـخُلَّص المبادرين لامتثال الأدب في استئذانهم وغيرهم ممن يفتقد لهذا التهذيب السّلوكي الرّفيع ؛ لِمَا قام في قلبه من مرض !.

أخيراً : فقد سبقتِ الإشارةُ في البداية إلى أنَّ النَّاس ينبغي أن تُنَزَّلَ منازلها، وتُـقَرّ على مَـحَالّها ، وتتبَوَّءَ أماكِنَهَا التي تليق بها، مع مَعْرفةِ قَدْر كُلِّ أحدٍ، بداءةً بالأدب في المخاطبات، وانتهاءً بالرَّشَدِ في التصرّفات والسّلوكيّات .

وقد انتزعَ الإمام ابن العربي ـ رحمه الله ـ من هذه الآية التي تناولها البحث نحواً مِن هذا الفَهم ، فقال ـ رحمه الله ـ : «المعنى الثّالث : أنَّ معناه : لا تسوُّوا بين الرّسول وبينكم في الدَّعوة، كلّ أحدٍ يُدْعَى باسمه إلاَّ رسول الله، فإنّه يُدْعَى بخُطَّتِهِ وهي الرِّسالة .

وكذلك قال العلماء غَفِيراً : إنَّ الخليفةَ يُدْعَى بها، والأمير، والمعلّم، ويُوَفَّرُ على كلِّ واحدٍ حظَّه من الـخُطَّةِ، فيُدْعَى بها ؛ قَصْدَ الكَرامة»[1].

المبحث الرّابع : تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن التقدُّم بين يدي الله ورسوله ﷺ .

المؤمنُ الحقُّ ينبغي أن يَتَربّي في حِسّه، ويستقرّ في أعماقه أنّه تَبَعٌ في كلِّ ما يأتي ويَذَر لِـمُرَادَاتِ الحقّ ـ تعالى ـ ، ويَقْفُو في كلِّ شؤون حياته توجيهات رسوله الكريم ﷺ ، وهذا هو مقتضى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٦] ، ومقتضى قوله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه مِن وَلَدِهِ ووالِدِهِ والنَّاس أجمعين»[2].

«فَمَن أحبَّ الله ورسوله محبَّةً صادقةً من قلبه، أوجب له ذلك أن يُحبَّ بقلبه ما يُحبُّه الله ورسوله ، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى بما يرضى الله ورسوله، ويَسخط ما يَسْخَطُهُ الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحبِّ والبغض ، فإن عملَ بجوارحه شيئًا يُخالفُ ذلك، بأن ارتكبَ بعضَ ما يكرهه اللهُ ورسولُه، أو ترك بعضَ ما يُحبّه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دلَّ ذلك على نقص محبّته الواجبة ، فعليه أن يتوبَ من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة»[3].

ولقد كان صحابةُ النبيّ ﷺ خير مَن يتمثّلُ هاتيك المعاني الرَّائقات، ويقومُ بها خير قيام، وسِيَرُهُم في ذلك عاطرةٌ، وقَصَصُهُم مع ذلك معروفةٌ مشهورةٌ ، وسيأتي لاحقا ذكر أنموذجين منها.

وهنا أَدَبٌ آخَرُ أدَّبَ به الحقُّ ـ تعالى ـ جُموعَ الصَّحابةِ المؤمنينَ ﷺ في هذا المعنى، وذلك في قولِهِ ـ جَلَّ ذِكْرُهُ ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾[الحجرات:١]. «وهو أدبٌ نفسيٌّ مع الله ورسوله، وهو منهجٌ في التلقّي والتنفيذ، وهو أصلٌ من أُصول التشريع والعمل في الوقت ذاته ، وهو منبثقٌ من تقوى الله، وراجعٌ إليها ، هذه التقوى النّابعة من الشّعور بأنّ الله سميعٌ عليمٌ ، وكلّ ذلك في آيةٍ واحدةٍ قصيرةٍ ، تلمسُ وتصوّرُ كلَّ هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة»[4].

وقد اختُلِفَ في سبب نزولها على أقوال:

- الأوّل : ما ذَكَرهُ الواحِدي من حديث ابن جُرَيج قال: حدَّثني ابن أبي مُلَيكَة أنَّ عبد الله بن الزُّبير أخبره أنه قَدِمَ ركبٌ من بني تميم على رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاعَ بن مَعْبَد. وقال عُمَر: أَمِّر الأقرعَ بن حابس. فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي. وقال عُمَر: ما أردت خِلافَك. فتَمَارَيَا حتى ارتفعتْ أصواتُهُمَ؛ فنزل في ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ ـ إلى قوله ـ

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣٩٦/٢ـ٣٩٧).
(٢) في ظلال القرآن (٣٣٣٨/٦).

(٣) أحكام القرآن (١٤١٢/٣) .
ومعنى : غفيراً ، أي : جميعاً . والـخُطَّة : الأمر .
انظر : القاموس المحيط (٥٨٠) ، مادة "غَفَرَه" ، و(٨٥٨) ، مادة "خطَّ" .
(٤) صحيح البخاري (١٤/١) ح(١٥) ، تحقيق : البغا ، وصحيح مسلم (٦٧/١) ح(٤٤)، تحقيق : عبد الباقي .

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾[1] [الحجرات:١ـ٥] .

- الثَّاني: ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً؛ إذْ مضى إلى خَيْبَر، فأشار عليه عمر برجل آخر، فنزل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.

- الثَّالث : ما ذكره الماورديُّ عن الضَحَّاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أنَّ النبيَّ ﷺ أَنفَذَ أربعة وعشرين رجلاً مِن أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم، إلاَّ ثلاثة تَأَخَّرُوا عنهم، فَسَلِمُوا وانكَفَؤُوا إلى المدينة، فَلَقوا رجلين من بني سُلَيم فسألوهما عن نسبهما فقالا: مِن بني عامر، لأنَّهم أعزُّ من بني سُلَيم فَقَتَلُوهُمَا وسَلَبُوهُمَا، ثُمّ أتوا رسول الله ﷺ قال : «بئسما صنعتم كانا من سُليم ، والسَّلب ما كَسَوتُمُوهما»، فجاء نفرٌ مِن بني سُلَيم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: "إنَّ بيننَا وبينَك عَهْدَاً، وقد قُتِلَ منَّا رِجَالان"، فَوَدَاهُمَا النبيُّ ﷺ بمائة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرَّجلين[2]. أي : لا تعملوا شيئاً من ذات أنفسكم حتى تَسْتَأمِرُوا رسول الله ﷺ.

- الرَّابع : ما رُوِيَ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أنّ ناساً كانوا يتقدّمون الشهر، فيصومون قبل النبيّ ﷺ، فأنزل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[3].

- الخامس : ما رواه الطَّبري عن قتادة قال : «إنَّ ناسا كانوا يقولون لو أُنزل في كَذا! لو أُنزل في كذا! فنزلت هذه الآية».

- السَّادس : ما رواه الطَّبري أيضا عن الحسن قال:«نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذَّبح».

- السَّابع : ما رُوِيَ عن الحسن أيضا قال:«لَمَّا استقرَّ رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق، فأكثروا عليه المسائل ، فَنُهُوا أن يبتدؤوه بالمسألة حتى يكون هو المبتدئ»[4] .

وهاتيك الأسباب التي سيقت آنفا ــ ما صَحَّ منها إلى رواتها، ولا شكَّ أنَّ في مُقَدَّمها خبر مُمَارَاة أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ بين يدي رسول الله ﷺ ـ كلّها تدخل تحت عموم الآية الكريمة ، «والله ـ تعالى ـ وحَده عليمٌ بالسَّبب المُثير للآية منها ، ولَعَلَّهَا نزلت ابتداءً دون سَبَبٍ»[5] .

وثمّة أقوالٌ أتت في معنى قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، تحملها على معاني خاصّة منها[6]:

---

(١) **انظر هذه الرواية وما قبلها في سبب النزول في الآتي** : جامع البيان (١١٦/٢٦ـ١١٧)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣٣٠٢/١٠) ، وأسباب نزول القرآن (٤٠١) ، والنكت والعيون (٣٢٥/٥ــ٣٢٦)، ومعالم التنزيل (٢٠٩/٤) ، والكشاف (٥٥٦/٥)، وأحكام القرآن لابن العربي (١٧١٢/٤ــ١٧١٣) ، والجامع لأحكام القرآن (٢٥٥/١٦ــ٢٥٦) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٦٠/٤)، والدر المنثور (٨٥/٦ــ٨٦) ، وروح المعاني (٢٨٦/٢٦) .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (١٧١٣/٤) .

(٣) **انظر تلك الأقوال في معنى الآية في** : جامع البيان (١١٦/٢٦ـ١١٧)، ومعاني القرآن وإعرابه (٣١/٥) ، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣٣٠٢/١٠)، والنكت والعيون (٣٢٥/٥ـ٣٢٦)، ومعالم التنزيل (٢٠٩/٤)، وأحكام القرآن لابن العربي (١٧١٢/٤ــ١٧١٣)، والجامع لأحكام القرآن (٢٥٦/١٦) ، والتسهيل لعلوم التنزيل

(٣) انظر : صحيح البخاري (١٥٨٧/٤) ح(٤١٠٩) ، تحقيق : البغا .

(٤) انظر : شعب الإيمان للبيهقي (١٩٦/٢) ح(١٥١٧)، في الباب الخامس عشر ، باب : في تعظيم النبي ﷺ وإجلاله وتوقيره .

(٥) انظر : مجمع الزَّوائد ومنبع الفوائد (١٤٨/٣)، **قال الهيثمي** : «رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه حبّان بن رقيده ، وهو مجهول» .

١. لا تَقُولُوا خلافَ الكتابِ والسُّنّة. ذكره علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ .

٢. أنّهم نُهُوا أن يتكلّموا بين يدي كلامه ﷺ، بل عليهم أن يُصْغُوا ولا يَتَكَلّمُوا. ذكره عطية العوفي عن ابن عباس ﷺ .

٣. لا تَصُومُوا قبل أن يصوم نبيّكم ﷺ قاله جابر بن عبد الله ﷺ .

٤. لا تَفْتَاتُوا على الله ورسوله ﷺ بشيءٍ حتى يقضيه الله على لسان رسوله ﷺ قاله مجاهد.

٥. لا تدعوا قبل الإمام. قاله الحسن البصري.

٦. لا تَقْضُوا أمرا في القتال وشرائع الدّين دون الله ورسوله ﷺ قاله الضّحّاك .

٧. لا تُقَدِّموا أعمال الطّاعات قبل وقتها الذي أمر به الله - تعالى - ورسوله ﷺ . قاله ابن جُرَيج.

٨. لا تَقْطَعُوا ولا تَقْضُوا أمرا دون الله ورسوله ﷺ . قاله ابن زيد ، وسفيان الثّوري.

٩. لا تتقدموا بين يديه إذا مَشَى، ذَكره ابن جُزَيّ الكلبي ، وهذا إنّما يتأتّى على قراءة يعقوب"لا تَقَدَّموا" بفتح التّاء والقاف والدّال .

قال الباحث : والأولى أن تكون الآية عامّة ، فيدخل فيها كلّ قول وفعل مما سبقت الإشارة إليه، وكذلك يدخل فيه أنه إذا جَرَتْ مسألةٌ في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب، وأن لا يُمْشَي بين يديه إلاّ لحاجة، وأن يُسْتَأْنَي في الافتتاح بالطّعام، وهذا المذهب هو «الموافق للسّياق، ولِمَا عُرف في الأُصول من أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب»[(١)]. كما أنَّ هـــاتيك الأقوال التي ذُكِرتَ

في معنى الآية لا تعارض بينها ولا اختلاف ولا تضادّ، بل هي من باب اختلاف التّنَوُّع، فتُحْمَلُ الآيةُ عليها.

قال الطّبري - رحمه الله - : «يعني - تعالى ذِكْرُهُ - بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: يا أيها الذين أَقَرُّوا بوحدانية الله، وبنبوّة نبيه مُحَمّد ﷺ . ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ يقول : لا تَعْجَلُوا بقضاءِ أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضيَ اللهُ لكم فيه ورسولُـهُ، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، محكيّ عن العرب فلان يُقَدِّمُ بين يدي إمامه، بمعنى يَعْجَلُ بالأمر والنّهي دونه»[(٢)].

وقال ابن عطية - رحمه الله -:«وعموم اللّفظ أحسن؛ أي: اجعلوه مبدءًا في الأقوال والأفعال»[(٣)].

وقال ابن كثير - رحمه الله - : «هذه آدابٌ أَدَّبَ اللهُ بها عباده المؤمنين فيما يُعَامِلونَ به الرّسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ، أي : لا تُسْرِعُوا في الأشياء بين يديه؛ أي: قَبْلَهُ، بل كونوا تَبَعًا له في جميع الأُمور»[(٤)].

وقال ابن عاشور - رحمه الله - : «فهي عامّةٌ في النّهي عن جميع أحوال التَقَدُّم المراد»[(٥)].

والنّاظر في قوله - تعالى - : ﴿لا تُقَدِّمُوا﴾ على سَنَن العربية يُدرك الإشارة إلى هذا العموم خاصَّةً على قراءة الجمهور من أنّ ﴿تُقَدِّمُوا﴾ مضارع "قَدَّم" المتعدي، وحذف مفعوله لغرض التعميم، بحيث يتناول النّهي كلَّ ما يتأتّى فيه التقدّم قولاً كان ذلك أم فعلا، وهذا الوجه «أملأ بالحسن وأوجه، وأشدّ ملاءمةً لبلاغة القرآن، والعلماءُ له أَقْبَل»[(٦)].

قال أبو حيّان - رحمه الله - : «وقرأ الجمهور : ﴿لا تُقَدِّمُوا﴾ فاحتمل أن يكون متعديًا ، وحذف مفعوله؛ ليتناول كلَّ ما يقع في النّفس مما تقدّم، فلم يقصد لشيءٍ معيّن بل النَّهي متعلّق بنفس الفعل دون تعرّض لمفعول معيّن؛ كقوله: فلانٌ يُعْطِي ويَمْنَع، واحتمل أن يكون

---

(١) جامع البيان (١١٦/٢٦).
(٢) المحرر الوجيز (١٣١/١٥) .
(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٦٠/٤).
(٤) التحرير والتنوير (٢١٧/٢٦) .
(٥) الكشاف (٥٥٤/٥) .

(٢) (٣٥٥/٢) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٦٠/٤) ، والدر المنثور(٨٥/٦ـ٨٦) .
(٤) روح المعاني (٢٨٧/٢٦).

لازما بمعنى: تَقَدَّم ، كما تقول : وُجِّهَ بمعنى تَوَجَّه، ويكون المحذوف مما يوصل بحرف؛ أي : لا تَتَقَدَّمُوا في شيءٍ ما من الأشياء ، أو مما يُحِبّون ، ويعضد هذا الوجه : قراءةُ ابن عبَّاس، وأبي حَيوة ، والضَحّاك ، ويعقوب، وابن مِقْسَم : ﴿لا تَقَدَّمُوا﴾ بفتح التّاء والقاف والدَّال على اللُّزوم»[١].

والتعبير القرآني الكريم بقوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ ﴾

فيه تذكيرٌ لأهل الإيمان ، وعلى رأسهم الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ أنَّ المُقَدَّم بين يديه ليس كغيره، وأنّه ينبغي أن يكون حالهم معه خلاف حالهم مع سواه دائمًا، وفيه «تصويرُ الهُجْنَة والشَّناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسُّنّة»[٢].

وعَطَفَ الحقُّ ـ تعالى ـ قوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ ﴾ على النَّهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله ؛ تكملةً له؛ ليدلَّ على أنَّ ترك إبرام شيءٍ دون إذن الرَّسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مِن تقوى الله وَحْدَهُ، وأنَّ ما كان ضدّه ليس مِن التقوى في شَيءٍ . وأتت جملة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ في موضع العلة للنّهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله، وللأمر بتقوى الله ـ عز وجل ـ .

وقد استعمل القرآن العظيم مع مَن خُوطِبَ بتلك الآية الكريمة أُسلوب العلاج والوقاية ، فعالج العَرَض والعِلّة وقت حدوثها؛ ومن ثَمَّ أرشدَ بعدُ لِمَا يَقِي منها، وذلك بالإرشاد والحثّ البليغ على ملازمة التقوى؛ فهي الحافظة للمُكَلَّفين من كلّ سوءٍ، والكافَّة لهم عن التَّجاوز والمخالفة.

وفي هذا المعنى وَرَدَ في الكَشَّافِ ما نصُّه : «﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ ﴾

فإنّكم إذا اتّقيتموه عاقتكم التقوىعن التَّقْدُمَة المنهي عنها ، وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنّبه ؛ فإنَّ التقيَّ حذِرٌ لا يُشَافِه أمرا ـ أي : يتشاغل بأمر ـ إلاّ عن ارتفاع الرِّيَب ، وانجلاء الشَّكِّ في أن لا تبعةَ عليه فيه، وهذا كما تقول لمن يُقارف بعض الرَّذائل: لا تفعل هذا، وتحفَّظ مما يلصق بك العار. فتنهاه أوَّلا عن عين ما قارفه، ثُمَّ تَعُمّ وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفَعْلَة، وكلّ ما يضرب في طريقها، ويتعلّق بسببها . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لِمَا تقولون . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما تعملون . وحقُّ مثلِهِ أن يُتَّقى ويُراقَب»[٣].

وقال الطَّبري ـ رحمه الله ـ : «﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يقول : وخافوا الله أيّها الذين آمنوا في قولكم أن تقولوا ما لم يأذن لكم به الله ولا رسوله، وفي غير ذلك من أموركم، وراقبوه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لِمَا تقولون ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِمَا تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يخفى عليه شيءٌ من ضمائر صدوركم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم»[٤].

وقد فَهِم الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ وأدركوا أنَّ قولَه ـ تعالى ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ ﴾

«أصلٌ في ترك التعرُّض لأقوال النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإيجاب اتّباعه، والاقتداء به»[٥]، ولذلك طبّقوها في حياتهم بعدُ، وخالطت شِغَافَهم فكانوا بصدق «صورة من الأدب ، ومن التحرّج ، ومن التقوى التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النّداء، وذلك التوجيه، وتلك الإشارة إلى التقوى، تقوى الله السّميع العليم»[٦]. وهنا أنموذجان اثنان ـ من مواقف عديدة ومُتَنَوِّعة ـ يُظْهِرَان هذا الامتثال، ويُفْصِحان عن ذلكم الأدب الجَمّ الماثل في ترك التقدّم بين يدي الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

- الأوّل : مَا كان من خبر صلح الحديبية، وإرسال النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ إلى قريش يُعْلِمُهُم مقصد النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ،وفيه : «ثمّ إنَّ الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مَقْصِده، فتوجَّه وتوجَّه معه عشرة استأذنوا الرّسول في زيارة أقاربهم، وَأَمَرَ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عثمان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشّرهم بقرب الفتح ، وأنَّ الله مُظهِر دينه، فدخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي فَبَلَّغ مَا حَمَل، فقالوا: إن

(١) الكشاف (٥/٥٥٦) .
(٢) جامع البيان (٢٦/١١٧).
(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٤/١٧١٣ـ١٧١٤) .
(٤) في ظلال القرآن (٦/٣٣٣٩).
(٥) البحر المحيط (٨/١٠٥) .
وانظر أيضاً في ذلك : روح المعاني (٢٦/٢٨٧).
(٦) الكشاف (٥/٥٥٤) .

مُحمّداً لا يدخلها علينا عَنْوة أبداً. ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت، فقال: «لا أطوف ورسول الله ممنوع»، ثم إنهم حبسوه، فشاعَ عند المسلمين أن عثمان قُتِل، فقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ حينما سمع ذلك : «لا نبرَح حتى نُناجِزُهُم الحربَ»»[1]. كيف أنّه ـ رضي الله عنه ـ امتنع أن يتقدّم بالطّواف وقد تيسّر له ذلك الأمر؛ لأنّه ـ رضي الله عنه ـ يعلم معنى التَّقْدُمَة بين يدي الله ورسوله ـ ﷺ ـ.

- الثّاني : ما كان في حجّة الوداع يوم النّحر في أثناء خطبته ـ ﷺ ـ إيّاهم وسألهم عن اليوم، وعن الشّهر، وعن المكان الذي هم فيه، فأرجعوا ـ رضي الله عنهم ـ معرفة ذلك لله ولرسوله ـ ﷺ ـ ؛ تحرُّجا أن يجيبوه، فيكون ذلك نوعا من صور التقدّم بين يدي الله ورسوله ـ ﷺ ـ ، ووقفوا عند قولهم : الله ورسوله أعلم، مع أنّه لا ريب في معرفتهم ـ رضي الله عنهم ـ لِمَا سألهم عنه ـ ﷺ ـ !، لكنّه التطبيق العملي لمعنى الآية ودلالتها الكريمة. خرَّج البخاري[2] في صحيحه عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال : خطبنا النبيُّ ـ ﷺ ـ يوم النّحر ، قال : «أتدرون أيّ يوم هذا ؟» ، قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنّه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال : «أليس يوم النّحر ؟» ، قلنا : بلى ، قال : «أيّ شهر هذا ؟» ، قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظنّنا أنّه سَيُسَمِّيه بغير اسمه ، فقال : «أليس ذا الحجّة ؟ »، قلنا : بلى ، قال : «أيّ بلدٍ هذا ؟» ، قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنّه سيُسَمِّيه بغير اسمه ، قال : «أليست بالبلدة الحرام ؟» ، قلنا: بلى ، قال : «فإنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت؟» . قالوا : نعم ، قال : «اللَّهم اشهد ، فليبلغْ الشَّاهد الغائب ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِن سَامِعٍ، فلا تَرْجِعُوا بعدي كُفَّاراً ، يضربُ بعضُكُم رقابَ بعضٍ» .

(٥) **انظر في روايات وتفاصيل تلك الواقعة**: الطبقات الكبرى (٩٥/٢ وما بعدها) ، وشعب الإيمان (٩٩/٤ وما بعدها) ، والتمهيد (١٤٨/١٢) ، والسِّيرة النبوية لابن كثير (٣١٩/٣) .

(٦) صحيح البخاري (٣٧/١) ح(٦٧) ، و(٦٢٠/٢) ح(١٦٥٤) ، و(١٥٩٩/٤) ح(٤١٤٤)، و(٢١١٠/٥) ح(٥٢٣٠)، و(٢٥٩٣/٦) ح(٦٦٦٧)، و(٢٧١٠/٦) ح(٧٠٠٩)، تحقيق : البغا .

وبعدُ : فإنَّ مناسبة الآية الكريمة موطن البحث لآخر ما قبلها ـ أعني : سورة الفتح ـ «ظاهرةٌ؛ لأنّه ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، ثُمّ قال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[٢٩]، فربما صَدَرَ من المؤمن عامل الصّالحات بعض الشّيء مما ينبغي أن يُنهَى عنه ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾»[3]. وكذا مناسبتها لِمَا بعدها من قوله ـ تعالى ـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ.... وما بعدها﴾ [٢ـ٥] ، فإنّها تُعتبر توطئة للنّهي عن رفع الأصوات عند رسول الله ـ ﷺ ـ، والجهر له بالقول ، ونداءه من وراء الحجرات[4].

الحجرات[4].

ويَحْسُنُ بعدَ هذا العَرْض ذِكْر المعنى الإجمالي للآية الكريمة ، وأنَّ معناها ما قاله الشَّيخ ابن سعْدي ـ رحمه الله ـ : «هذا متضمّن للأدب مع الله ـ تعالى ـ، ومع رسول الله ـ ﷺ ـ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متّبعين لسنة رسول الله ـ ﷺ ـ في جميع أمورهم ، وأن لا يتقدّموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإنَّ هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله ، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه ، وبفواته تفوته السّعادة الأبدية ، والنّعيم السّرمدي، وفي هذا النّهي الشّديد عن تقديم قول غير الرّسول ـ ﷺ ـ على قوله ، فإنّه متى استبانت سنة رسول الله ـ ﷺ ـ وجب اتّباعها وتقديمها على غيرها كائناً ما كان.

ثُمّ أمر الله بتقواه عموما، وهي كما قال طلق بن حبيب: "أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخشى عقاب الله" ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أي : لجميع الأصوات في جميع

(١) البحر المحيط (١٠٥/٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٢١٧/٢٦).

الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالظّواهر والبواطن، والسّوابق واللّواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات .

وفي ذكر الاسمين الكريمين ـ بعد النّهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه ـ حثٌّ على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيبٌ عن عدم الامتثال»(1).

المبحث الخامس: تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن رفعِ أصواتهم فوق صوته ﷺ .

تشمئزُّ النّفوسُ من رفعِ الآخرين الصَّوتَ عليها وقت التخاطب؛ إذ هو يُشعر بأمور لا تُستحْسَن، ويدلِّلُ على أشياء تمتعضُ معها الطبائع السّويّة، ولا تتوافق مع سمات الأخلاق العالية الرَّضيّة، ولقد أتى مَدْحُ الشّارع خفضَ الصّوت على جهة العموم دون تحديده بنقاش، أو سؤال، أو تخاطب، أو جِدَال، أو خصام ، وبرْهَن على قبح ذلك الفعل؛ إذ دلّل على نَكَارَتِه ؛ لمشابهته نكارة صوت مخلوق يُجْمِعُ كلُّ ذي أُذن سامِعَةٍ على فحش صوته، وذلك في شأن نصح لقمان ـ عليه السلام ـ ابنهُ شفقةً عليه بجملةٍ من الخِلال الفاضلة ، والصّفات الأخلاقية الرّاقية ، ومنها غَضُّ الصَّوتِ ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان:١٩] . وهي مقاربةٌ موحِشةٌ رادِعَةٌ، وهذا المخلوق المذكور في الآية الكريمة إن كان يستعمل هذا الصّوت اضطرارا ، فما غيره من بني آدم فضلاً عن معشر المؤمنين مُحْوَجٌ لسلوك ذات الدَّرب !، «فنهيق الحمار ليس مُنكراً من الحمار، إنما المنكر أن يُشْبِهَ صوتُ الإنسان صوتَ الحِمَار ، فكأن نهيق الحمار كمالٌ فيه ، وصوتك الذي يُشْبِهُهُ مُنكَرٌ مذمومٌ فيك ... فالاعتدال في الصَّوتِ أمرٌ ينبغي أن يتحلَّى به المؤمنُ حتى في الصَّلاة ، وفي التعبد يُعلِّمنا الحقُّ ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء:١١٠]»(2).

قال أبو السّعود ـ رحمه الله ـ:«﴿ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ تعليلٌ للأمرِ على أبلغ وجهٍ وآكدِه مبنيٌّ على تشبيهِ الرّافعينَ أصواتَهم بالحميرِ،وتمثيلِ أصواتِهم بالنُّهاقِ،وإفراطٌ في التَّحذيرِ عن رفعِ الصَّوتِ، والتَّنفيرِ عنه»(3).

ورفع الصّوت وترك الاعتدال فيه مُسْتَوحَشٌ مرغوبٌ عنه في حقِّ النّاس عامَّةً، وفِعْلُهُ «بحضرة الكبراء والعظماء يدلُّ على قلّة الاحتشام وعدم الاحترام،فإذا كان ذلك كذلك، فرسول الله ﷺ أولى بهذا التبجيل والتوقير ، فَضْلاً عن كونه واجباً ومطلوباً»(4).

ولذا أتى هذا الأدبُ الآخَرُ مِن جملةِ تأديباتِ القرآن الكريم لعموم المؤمنين ، وفي مُقَدِّمَتِهم الصَّحابةُ الأبرار ـ رضي الله عنهم ـ، وذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات:٢ـ٥] . و«هو أَدَبُهُم مع نبيّهم في الحديث والخطاب ، وتوقيرُهُم له في قلوبهم ، توقيراً ينعكس على نبراتهم وأصواتهم، ويُمَيِّزُ شخص رسول الله بينهم، ويُمَيِّزُ مجلسه فيهم»(5). وهذه الآياتُ «شروعٌ في النّهي عن التجاوز في كيفيّة

---

(3) تيسير الكريم الرَّحمن (٧٩٩) .

(1) تفسير الشّعراوي (١١٦٧٧/١٩) .

(2) إرشاد العقل السَّليم (١٩٠/٥).

(3) منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه (٣٨٢).

(4) في ظلال القرآن (٣٣٣٩/٦).

القول عند النبيّ ﷺ بعد النَّهي عن التجاوز في نفس القول والفعل»[1].

وقد ذَكَرَ أهلُ التفسير لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ ﴾ سبب نزول ، وذلك ما ثبت في الصَّحيح[2] عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال : «كاد الخَيِّران أن يَهْلَكَا : أبو بكر وعُمَر ، رَفَعَا أصواتهما عند النبيّ ﷺ حين قدم عليه رَكْبُ بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، ـ قال نافع عنه : "لا أحفظ اسمه" ـ ، فقال أبو بكر لعُمَر : "ما أردتَ إلاّ خلافي"، قال : "ما أردتُ ذلك"، فارتفعتْ أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ .... الآية﴾. قال ابن الزّبير : "فما كان عُمر يُسْمِعُ رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يَستَفْهِمَه"»، وهو قول ابن أبي مُليكة[3].

وذكر الواحدي[4] أنّها نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس ـ رضي الله عنه ـ كان في أُذنه وَقْرٌ ، وكان جهوريَّ الصّوت ، وكان إذا كلّمَ إنساناً جَهَرَ بصوته ، فربّما كان يكلّم رسول الله ﷺ فيتأذّى بصوته ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية . ثُمَّ ساق بسنده ـ رحمه الله ـ لأنس ـ رضي الله عنه ـ قال : «لمَّا نزلت هذه الآية : قال ثابت بن قيس : "أنَا الذي كنت أرفعُ صوتي فوق صوت النبيّ ﷺ ، وأنا من أهل النَّار"، فذُكِر لك لرسول الله ﷺ فقال : «هو مِن أهل الجنّة»» . خرّجه مسلم في صحيحه[5].

وذكر السّيوطي[6] في الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في قوله : ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ قال : «نزلت في قيس بن شَمَّاس» .

وخرَّج الطبري[7] عن قتادة قال : «كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون أصواتهم ، فأنزل الله : ﴿ لا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾» .

وذكر القرطبي[8] نقلاً عن المَهْدَوي أنَّه ذكر أنَّ عليَّ بن أبي طالب طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : «نَزَلَ قولُهُ :

﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ فينا لَمَّا ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة نتنازع ابنة حمزة لَمَّا جاء بها زيد من مكة ، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر ؛ لأنّ خالتها عنده»[9].

وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبيّ ﷺ؛ ليقتدي بهم ضَعَفة المسلمين ، فَنُهِيَ المسلمون عن ذلك . وهو مروي عن الحسن البصري[10].

---

(٥) روح المعاني (٢٨٧/٢٦). **وهذا النقل يُبينُ عن مناسبة** هذه الآيات لما قبلها، وسيأتي لاحقاً مناسبتها لما بعدها.

(١) صحيح البخاري (١٨٣٣/٤) ح(٤٥٦٤)، و(٢٦٦٢/٦) ح(٦٨٧٢) ، تحقيق : البغا .

(٢) **أعني كون الآية نزلت بسبب خبر أبي بكر وعمر** ـ رضي الله عنهما ـ . **انظر** : زاد المسير (٢٢٠/٧) .

(٣) انظر : أسباب نزول القرآن (٤٠٢) . **ونسب ابن الجوزي في زاد المسير (٢٢٠/٧) كونها نزلت في شأن ثابت بن قيس إلى مقاتل بن سليمان البلخي** ، وهو كذا مثبت في تفسير مقاتل بن سليمان (٢٥٨/٣).

(٤) صحيح مسلم (١١٠/١) ح(١١٩)، تحقيق : عبد الباقي .

(٥) الدر المنثور(٨٨/٦). **كذا ثبتت في الدر** "قيس بن شماس" ، فقد يكون تصحيفا ، أو خطأ طباعيا ، **وقد يكون على بابه** : ومراده ثابت بن قيس ، ولا مانع من ذلك فقد يطلقون اسم الأب ويُريدون الابن .

(٦) جامع البيان (١١٨/٢٦). **وانظر أيضاً** : الدر المنثور (٨٦/٦)، وعزاه لعبد بن حميد .

(٧) **انظر** : الجامع لأحكام القرآن (٢٥٨/١٦).

(٨) **خبر التنازع فيمَن يأخذ ابنة حمزة انظره بتوسّع في صحيح البخاري** : (٩٦٠/٢) ح٢٥٥٢)، تحقيق : البغا .

(٩) **انظر** : الجامع لأحكام القرآن (٢٦٠/١٦)، وإرشاد العقل السَّليم (١١٢/٦).

ولا مانع من أن تكون تلك الأسباب كلّها تَضَافَرَتْ ـ خلا خبر عليٍّ ـرضي الله عنه؛ لأنه لم يُسْنَد عند أحد ـ لنزول هاتيك الآيات الكريمات .

وقد بدأت الآيات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ بنداء المجتمع المسلم بنداء الإيمان «ذلك النداء الحبيب الذي يَخْجَلُ مَن يُدْعَى به من الله أن لا يُجيب،والذي يُيَسِّر كلَّ تكليف، ويُهَوِّنُ كلَّ مشقّة، ويُشَوِّقُ كلَّ قلبٍ فيسمع ويُجيب»[1]. وإعادةُ النداء مع قرب العهد به؛«استدعاءٌ منهم لتجديد الاستبصار عند كلِّ خطابٍ واردٍ، وتطريةُ الإنصاتِ لكلّ حكم نازل، وتحريكٌ منهم؛ لئلا يَفْتُرُوا ويَغفلُوا عن تأمّلهم، وما أُخِذُوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعودُ عليهم بعظيم الجدوى في دينهم ؛ وذلك لأنَّ في إعظام صاحب الشَّرْع إعظامَ ما ورد به، ومُسْتَعْظِمُ الحقِّ لا يَدَعُهُ استعظَامُهُ أن يألو عملاً بما يَحْدُوهُ عليه ـ أي : يحضّه عليه ـ، وارتداعا عمّا يصدّه عنه، وانتهاء إلى كلّ خير»[2].

قال الطَّاهر ـ رحمه الله ـ : «إعادةُ النداء ثانيا ؛ للاهتمام بهذا الغرض، والإشعار بأنّه غرضٌ جديرٌ بالتنبيه عليه بخصوصه ؛ حتى لا ينغَمِرَ في الغرض الأوّل ، فإنَّ هذا من آداب سلوك المؤمنين في معاملة النبيِّ ﷺ، ومقتضى التأدّب بما هو آكد من المعاملات بدلالة الفَحْوَى»[3].

ولقد نَهَتْ تلك الآيات الكريمات المؤمنين عن أمرين مهمّين :

- الأوّل : عن رفع أصواتهم بحضرته ﷺ فتعلو أصواتهم على صوته ﷺ في المجلس، سيّان في ذلك حين تكليمهم إياه ﷺ ، أو تكليم بعضهم بعضا، فينبغي أن يسودَ جوٌّ من الوقار والسَّكينة والهيبة مجلسه المُشَرَّفَ ﷺ، بلا لغطَ، أو صَخَبَ، أو تشويش، أو جِدَال، ولا نَزَق إنّما الحشمة والوقار.

وَرَدَ في الكشّاف ما نصُّه : «﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ أنّه إذا نَطَقَ ونَطَقتُم فعليكم أن لا تبلُغُوا بأصواتكم وراءَ الحدِّ الذي يَبلُغُهُ بصوتِهِ ، وأن تَغُضُّوا منها بحيث يكون كلامُهُ عالياً لكلامكم ، وجَهْرُهُ باهراً لِجَهْرِكُم، حتى تكون مزيَّتُهُ عليكم لائحةً، وسابقتُهُ واضحةً، وامتيازُهُ عن جمهوركم كَشِيَةِ الأَبْلَق غير خافٍ، لا أن تَغْمُرُوا صوته بِلَغَطِكُم، وتَبْهَرُوا منطِقَهُ بِصَخَبِكُم»[4].

وموقع قوله : ﴿ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ موقع الحال من ﴿ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾، أي : متجاوزةً صوت النبيّ ﷺ، أي : متجاوزةً المعتاد في جهر الأصوات؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ يتكلّم بجهر معتادٍ ، ولا مفهوم لهذا الظّرف ـ أعني: ﴿ فَوۡقَ ﴾ ـ؛ لأنه خارجٌ مخرج الغالب ؛ إذ ليس المراد أنّه إذا رفع النبيُّ ﷺ صوته فارفعوا أصواتكم بمقدار رفعه[5]. على أنَّ هذا النَّهي الآتي في الآية مخصوصٌ مخصوصٌ بغير المواضع التي يُؤمَر بالجهر فيها كالأذان ، وتكبير يوم العيد، وبغير ما أَذِنَ فيه النبيُّ ﷺ إذناً خاصّاً، كقوله للعباس ـرضي الله عنه حين انهزم المسلمون يوم حنين : «نادِ يا أصحابَ السَّمُرَة»[6]، وقد كان العباس ـرضي الله عنه جهير الصَّوتِ .

وذهب الطَّاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ إلى أنَّ معنى الآية : لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلَّم بعضُكم بعضاً كما وقع في

---

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٣٣٧).

(٢) الكشاف (٥/٥٥٦ـ٥٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/٢١٩).

(٤) الكشاف (٥/٥٥٧).

(٥) **وقد قرأ ابن مسعود** ـرضي الله عنه : (لا تُرَفِّعوا بأصواتكم) وهي شاذة ، والتشديد فيها للمبالغة ، على معنى ما تقرّر آنفاً .

انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٦٠) ، وروح المعاني (٢٦/٢٨٧) .

(٦) صحيح مسلم (٣/١٣٩٨) ح(١٧٧٥)، بابٌ في غزوة حُنين ، تحقيق : عبد الباقي.

صورة سبب النّزول ، ولقد تَحَصَّلَ من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله ﷺ؛ إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتاً عنده .

وقد دفعه لحصره هذا الجزءُ من الآية بعدُ بحيث لا تكون من قبيل التكرار[1].

- الثَّاني : عن مخاطبته بِغِلْظَةٍ وجَفَاءٍ وجَلافَةٍ كما كانوا يفعلون مع بعضهم البعض، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾. وفي المراد بهذا قولان[2]:

ـ الأول : أنّه الجهر بالصَّوت في المخاطبة، قاله الأكثرون .

ـ والثّاني : لا تدعوه باسمه : يا مُحَمَّد ، كما يدعو بعضُكم بعضاً ، ولكن قولوا : يا رسول الله، ويا نبيَّ الله ، وهو معنى قول سعيد بن جبير ، والضَّحَّاك، ومقاتل . ويكون في معنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور:٦٣] .

وهذه الجملة من الآية الكريمة الأَوْلى أن تكون بمعنىً يُغايرُ معنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾؛ وذلك أنّه من المُقَرَّر أنَّ التأسيس أولى من التأكيد[3]."فالأوّل نهيٌ عن رفع الصّوت فوق صوته ﷺ، وهذا نهيٌ عن مساواة جهرهم لجهره ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ، فإنّه المعتاد في مخاطبة الأقران والنّظراء بعضهم لبعض، ويُفْهَمُ من ذلك وجوب الغضِ حتى تكون أصواتهم دون صوته ﷺ .

وقيل : الأول مخصوصٌ بمكالمته ﷺ لهم، وهذا بصمته ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ، كأنّه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نَطَقَ ونَطَقتم ، ولا تجهروا له بالقول إذا سَكَتَ وتَكَلَّمتم ، ويُفْهَمُ أيضاً وجوب كون أصواتهم دون صوته ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ، فأيّاً ما كان يكون المآل : اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ، وتعهّدوا في مخاطبته اللّين القريب من الهمس ، كما هو الدَّأب عند مخاطبة المهيب المُعَظَّم، وحافظوا على مراعاة أُبَّهَةِ النّبوّة، وجلالة مقدارها»[4]. ولن يَغْرُبَ عنهم ﷺ أنّه من مقتضى التأدّب أيضاً معه ﷺ ألاَّ يَدْعُوهُ باسمه المجرَّد كما يدعو بعضُهم بعضا .

قال الطَّاهر ـ رحمه الله ـ : «وقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ نهيٌ عن جهر آخر ، وهو الجهر بالصّوت عند خطابهم الرّسول ﷺ؛ لوجوب التغاير بين مقتضى قوله : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾، ومقتضى ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾، واللاَّم في "له" لتعدية "تجهروا"؛ لأنَّ "تجهروا" في معنى : "تَقُولُوا"، فدلَّت اللاَّم على أنَّ هذا الجهر يتعلَّق بمخاطبته، وزاده وضوحاً التشبيه في قوله : ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾»[5].

ومَن كان حالُهُ رفع الصَّوت على رسول الله ﷺ، أو بحضرته، أو كان يجهرُ له بالقول كما يجهر لغيره فهو مُعَرِّضٌ نفسه للوعيد الشّديد ، ومُتَهَدَّدٌ بالخطر المُحيق، ولذا قال الحقُّ مُقَفِّياً ذلكم النَّهي عن تلك المظاهر الآنفة : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

والحَبْطُ : إفساد العمل بعد تقرُّره؛ يقال : حَبِطَ بكسر الباء ، وأحبطه الله ، وهو تمثيلٌ لعدم الانتفاع بالأعمال الصَّالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر، وهو مأخوذٌ من حَبِطَت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها فتعتلّ، ولربما هَلَكَت، وفي الحديث:« وإنّ مما يُنبِتُ الرَّبيعُ لَمَا يقتلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ»[6]. وقوله: ﴿ أَن تَحْبَطَ

---

(١) انظر : التحرير والتنوير (٢٦/٢٢٠ـ٢٢١) .

(٢) **انظر القولين في** : تفسير مقاتل بن سليمان (٣/٢٥٨) ، والنكت والعيون (٥/٣٢٦ـ٣٢٧)، وزاد المسير س(٧/٢٢٠) .

(٣) انظر : قواعد الترجيح عند المفسرين (٢/٤٧٣).

(٤) وروح المعاني (٢٦/٢٨٨) ، والكشاف (٥/٥٥٧) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/٢٢٠ـ٢٢١) .

(١) صحيح البخاري (٢/٥٣٢) ح(١٣٩٦)، و(٣/١٠٤٥) ح(٢٦٨٧)، تحقيق : البغا ، وصحيح مسلم (٢/٧٢٧) ح(١٠٥٢)، تحقيق : عبد الباقي.

﴿ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ مفعول لأجله؛ أي : مخافة أن تحبط. وقيل : مفعولٌ له، أي: لئلا تحبط أعمالكم، ومن حيث المعنى: فإنَّ حبوط العمل عِلَّةٌ في كلٍّ من الرّفع والجهر[1] ، وقرأ ابن مسعود وزيد بن عليٍّ:

(فَتَحْبَطَ) بالفاء، وهي أظهر في التنصيص على أنَّ الرَّفع والجهر مؤدِّيان إلى الإحباط؛ لأنَّ ما بعد الفاء لا يكون إلاّ مُسَبَّباً عمّا قبلها[2].

ويا لِعَظَمَةِ حقِّ النبيِّ ﷺ على أُمّته حتى جعل مجرد رفع الصّوت والجهر طريقاً موصلةً إلى إبطال الأعمال بالكليّة ، وزوال نفعها وأجرها .

قال الواحدي النَّيسابوري ـ رحمه الله ـ:«وهذا يدلُّ على أنّه يجب أن يُعَظَّم النبيُّ ﷺ غاية التعظيم فقد يأتي الإنسان الشَّيء اليسير في بابه، فيكون ذلك محبطاً لعمله مهلكاً إيّاه، وهو لا يعلم ذلك»[3].

وقال ابن جُزَيّ ـ رحمه الله ـ : «وهذا الإحباط؛ لأنَّ قلّة الأدب معه ﷺ، والتقصير في توقيره يُحبط الحسنات، وإن فَعَلَهُ مؤمنٌ؛ لعظيم ما وقع فيه من ذلك»[4].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : «وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أَي: إنَّما نهيناكُم عَن رَفعِ الصَّوتِ عندَه خشية أَن يغضب من ذلك فيغضبَ اللَّه ـ تعالى ـ لغضبِه، فيحبطَ عملُ مَن أَغْضَبَهُ وَهُوَ لا يَدرِي، كما جاء في الحديث الصّحيح[5] : «إنَّ الرَّجل ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله ـ تعالى ـ لا يُلقي لها بالاً يُكتب له بها الجنّة ، وإنَّ الرَّجل ليتكلّم بالكلمة مِن سَخَط الله ـ تعالى ـ لا يُلقي لها بَالاً يَهْوي بها في النَّار أبعدَ ما بين السّماء والأرض»[6].

وما قاله أولئك الجِلَّةُ ـ رحمهم الله ـ هو منهم جَزِيٌّ على ظاهر الآية، والأصل في ألفاظ القرآن أن تحمل على الظَّاهر ما لم يأتِ لها صارفٌ عن إرادة الظّاهر[7]. وظاهر الآية : التحذير من حبط الأعمال؛لأنَّ الجمع المضاف من صيغ العموم ، ولا يكون حبط جميع الأعمال إلاَّ في حالة الكفر؛ لأنَّ مِن الأعمال الإيمان ، فمعنى الآية حينئذٍ : أنَّ عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي ﷺ بعد هذا النّهي قد يُفضي بفاعله إلى إثم عظيم يأتي على عظيم مِن صالحاته، أو يُفْضِي به إلى الكفر، «أي: يكون ذلك سبباً إلى

الوحشةِ في نفوسكم ، فلا تزال معتقداتكم تتدرّج القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر، فَحبط الأعمال»[8].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : «لأنّ عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرّسول ﷺ يُعَوِّد النفس بالاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه ، وينقص توقير الرَّسول ﷺ من النفس ، وتتولّى من سيءٍ إلى أشدّ منه حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدّب معه ، وذلك كفرٌ ، وهذا معنى : ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾؛ لأنّ المتنقّل من سيئ إلى أسوأ لا يشعر بأنّه آخذٌ في التملّي من السّوء بحكم التعوّد بالشيء قليلاً قليلاً حتى تغمره المعاصي ، وربما كان آخرها الكفر حين تَضْرَى النفس بالإقدام على ذلك .

ويجوز أن يُراد حَبط بعض الأعمال على أنّه عامٌّ مرادٌ به الخصوص ، فيكون المعنى : حصول حطيطة في أعمالهم بغلبة عِظَم ذنب جهرهم له بالقول ، وهذا مجملٌ لا يعلم مقدار الحَبط إلاّ اللهُ ـ تعالى ـ»[9]. و«هكذا ارتعشت قلوبهم ، وارتجفت تحت وقع ذلك النّداء الحبيب، وذلك التحذير الرَّعيب، وهكذا تأدبوا في حضرة رسول الله ﷺ خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم، ولكن هذا المنزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم، فخافوه واتقوه»[10].

وانظر في معنى "حبط" : مختار الصحاح (٦٥ـ٦٦) مادة "حبط".

(٢) **أذكرُهذا ؛ لأنّه قد وقع خلافٌ نحويٌ** يترتَّب عليه نوع خلافٍ في المعنى في أعراب ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾، **وهذا الذي ذكرناه هو الخلاصة**. انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٣٥٥ـ٣٥٦) ، وإرشاد العقل السَّليم (٦/١١٢)، والتحرير والتنوير (٢٦/٢٢١) .

(٣) **انظر في ذلك** : الكشاف (٥/٥٦٠) ، والمحرر الوجيز (١٥/١٣٢)، والبحر المحيط (٨/١٠٦)، وروح المعاني (٢٦/٢٨٨)، والتحرير والتنوير (٢٦/٢٢٠ـ٢٢١).

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/١٥١) .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٣٥٦).

(٦) صحيح البخاري (٥/٢٣٧٧) ح(٦١١٣) ، تحقيق : البغا.

(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٣) .

(٨) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (١/١٣٧) .

(٩) المحرر الوجيز (١٥/١٣٢) .

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٢٢١ـ٢٢٢).

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٣٣٩).

والمُتَبصِّر في آيات الذِّكر الحكيم يُدرك مدى رعاية الحقّ ـ تعالى ـ لنفوس عباده من حيث تربيتها على استشعار الخوف حيناً والأنس بالوعد الحسن حيناً آخر، الأمر الذي يجعل المكلّف السّائر إلى ربّه ـ تعالى ـ يتردّد بين حاجزين عظيمين تكتنفُ دربه الطويل إلى ربه ﷻ ، وتمنعه عن التَّكَفّي يمنةً ويسرةً ؛ لئلا يقع في هُوَّةٍ سحيقةٍ ما لها من قرار !. وما هذا القول عنّا ببعيد في هذا السّياق القرآني المُوَقّر : فبعد أن أَرْهَبَ ـ أي : السِّياق ـ قلوبَ السَّامعين المؤمنين ـ وعلى رأسهم الصّحابةُ الكرامُ ـ بأنَّ الغفلة عن مراعاةِ زَمِّ النّفس إبّان حديثها مع وعند وبحضرة رسوله الكريم ﷺ مجلبةٌ لحبوط الأعمال كلّ الأعمال ، وهذا ما تَتَقَطَّعُ معه نياط قلوب المحبين الصّادقين، ناسب أن يَعودَ بالسّياق القرآني تارةً أُخرى فيأسو جراح تلك القلوب العامرة بالرّغبة فيما عند ربّهم ، ويمسح عنها رَهَق عَنَتِها ، وهي مَن قد عاشت بقلقها لِمَا قد صَدَرَ منها سابقاً من المخالفة ، ويُبشِّرُ لها أنَّ باب الرَّحَمَات لن يقفل أبداً إلاّ بخروج الأرواح ،أو بطلوع شمس آخر الزّمان، وما دام أنَّ ثمَّةَ أُناس تَعي عن ربّها ﷻ أمره، وتستدرك التفريط، وتعزم على مجانبة المخالفة، وتقرّر أن تفعل الأدبَ الأسنى ، وتتمثَّلَ المنهج الأولى ، والسّلوك الأرقى مع هذا النبيّ الكريم ﷺ فإنَّ ربّها لا يُضيع عَمَلَها، ولن يغفلَ عن إشفاقها بل يُحقّق تُقَاهَا، ويرفع إيمانها، ويزيد يقينها، فضلاً عن الأجر العظيم، والمغفرة الجزلة لهم في دار الكرامة، «فالتقوى هبةٌ عظيمةٌ، يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار، وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها في قلبٍ إلاّ وقد تهيأ لها، وقد ثبت أنّه يستحقّها، والذين يغضُّون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم ، وهيأها لتلقّي تلك الهبة ، هبة التقوى ، وقد كتب لهم معها وبها المغفرة ، والأجر العظيم ، إنّه الترغيب العميق بعد التحذير المخيف ، بها يُربّي الله قلوب عباده المختارين، ويعدّها للأمر العظيم الذي نهض به الصّدر الأوّل على هدى من هذه التربية ونور» [(١)]:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾.

وقد ذَكَرُوا أنَّ هذه الآية أنزلت في الشَّيخين وثابت بن قيس بن شمّاس ﷺ ؛ لِمَا كان منهم من غضِّ الصَّوت بعد نزول الآية السّابقة : فعن عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لَمَّا نَزَلَ قولُه ـ تعالى ـ : ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ تألَّى أبو بكر ﷺ أن لا يكلّم رسولَ الله ﷺ إلاّ كأخي السِّرار ـ أي : مصاحب السِّر من الكلام ـ ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ .... الآية﴾. وعن عبد الله بن الزّبير ﷺ قال : لمَّا نزلت : ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ ما حَدَّثَ عمر عند النبيّ ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يَسْتَفْهِمَهُ مما يخفض ، فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾.

وفي حديث الحاكم وغيره عن مُحَمَّد بن ثابت بن قيس أنّه قال بعد حكاية قصّة أبيه،وقوله ﷺ: «لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ﷺ»،وأنزل الله ـ تعالى ـ :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾(٢).

وأيّاًما ذُكِر فإنَّ لفظها مع ذلك على عمومه ، إذ "العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السَّبب" ، كما قد تقرَّر ، ويدخل فيها الشَّيخان وثابت بن قيس ﷺ دخولاً أوليّاً .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ أخلصها. ﴿للتقوى﴾

(٣) في ظلال القرآن (٦/٣٣٤٠).

(١) **انظر في هذه الرواية وما قبلها** : أسباب نزول القرآن (٤٠٣) ، والمستدرك على الصّحيحين (٣/٢٦١) ح(٥٠٣٦) ، والوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/١٥١) ، ومعالم التنزيل (٤/٢١٠)، والكشاف (٥/٥٦٢)، وزاد المسير (٧/٢٢٠) ، والجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٦٢)، وروح المعاني (٢٦/٢٩١)، والتحرير والتنوير (٢٦/٢٢٢) .

من المعصية[1] . فحذف الإخلاص ؛ لدلالة الامتحان عليه ، ولهذا قال مقاتل ومجاهد وقتادة : أخلص الله قلوبهم[2].

وقال الزَّجاج ـ رحمه الله ـ : «اختبر الله قلوبهم فوجدهم مُخلصين ، كما تقول : قد امتحنتُ هذا الذَّهب وهذه الفضة ، تأويله : قد اختَبَرتُهُما بأن أذبتهما حتى خَلَّصتُ الذَّهب والفضة ، فعلمتُ حقيقةَ كلّ واحدٍ منهما»[3]. وقيل : ﴿ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ جُرِّبَتْ ودُرِّبَتْ للتقوى، حتى صارت

قوية على احتمالها بغير تكلف، فهي مُضْطَلِعَةٌ بها[4].

وقيل : ﴿ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ ضَرَبَ قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشَّاقة؛ لأجل التقوى، فإنَّها لا تظهر إلاَّ بالاصطبار عليها . وعن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ : "أذهب عنها الشَّهوات"[5].

قال ابن سِعْدي ـ رحمه الله ـ : «وفي هذا دليلٌ على أنَّ الله يمتحن القلوب بالأمر والنّهي والمحن، فَمَن لازم أمر الله ، واتّبع رضاه، وسارع في ذلك، وقَدَّمَهُ على هواه ، تمحَّض وتمحَّص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ، ومن لم يكن كذلك علم أنّه لا يصلح للتقوى»[6].

إنَّه ليس من اليسير على الطِّباع أن تغيِّرَ سلوكَها ، ولا على العادات أن تزيل لبوسَها ، والمرء يَدْرُجُ في حياته على مظاهر حياتية ، ومسالك تَعَامُلِيّة مع ذاته ومع محيطه يُنَشَّؤ عليها تنشيئاً ، ويتبنَّاها بكلّ كيانه ، ومنها الصّالح ـ ونِعِمَّا هو ـ ، ومنها دون ذلك، وهو إن ذهب يُصْلِحُ شديدَهَا لاقى بُهْراً، وتكبَّدَ عَنَتاً ، ولعل مما يزيد الأمر شدةً رغبته تحصيل ذلك في مُدَّةٍ يسيرةٍ !، دون الأخذ بعين الاعتبار ضرورة التدرُّج في ذلك لِزَاماً، والموفّق من عباد الله من يأخذ الله ـ تعالى ـ بيده إلى الطَّريق القويم، فيكون معه بالتأييد والتوفيق والإحاطة تصديقاً لقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ [العنكبوت:٦٩] . شريطةَ إخلاصِهِ في نيَّته ، وصِدْقِهِ في تغيير واقِعِهِ، وجِدِيَّتِهِ في محاولته : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد:١١] . وما خبر الشَّيخين وثابت بن قيس ـ رضي الله عنهم ـ إلاَّ مثالٌ صادقٌ صالحٌ لِمَا يعمله اليقين في قلوب الموحّدين ، وتزرعه المراقبة في خَلَجَاتِ الأتقياء النَّاصحين لله الكريم ـ عزّ وجلّ ـ ، ولرسوله الأمين، ولدينه القويم ، كيف أنّهم ـ رضي الله عنهم ـ قلبوا الطِّباعَ فُضْلَى في فترةٍ قصيرةٍ جِدَّاً ، والمؤاخذةَ مَدْحَاً، فَعَادُوا بعدُ أغضَّ صوتاً، وأَهْمَسَ جَمْرَاً، وأخشعَ جَوانِحَاً ، إنّما هو الإيمان والتقى واليقين إذا دَخَلتْ في المعادلة فإنَّها تعمل عمل السِّحر في أفئدةِ أصحابها ، وطباع أهلها، والسِّياقُ القرآني ، ونظمُ الآية الكريمة المُثنية يُريهم في حال حياتهم ـ رضي الله عنهم ـ ، ويُري كلَّ مَن أتى بعدهم رضاه ـ تعالى ـ بما صنعوا ، وقبوله ـ عزّ وجلّ ـ لِمَا امتثلوا، وفي نفس الوقت يُعَرِّض بمن جَفَتْ طباعُه عن التغيير ، واستكبرتْ نفسُهُ عن التوقير ، وتَعَالَتْ أنانيَّتُهُ أن تنزلَ لمرادات الله ـ تعالى ـ ؛ اعظاماً لرسوله ، وتبجيلاً لنبيه ـ ﷺ ـ، وهم المنافقون ومَن بَاطَنَهُم ! : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾.

قال صاحب الكشَّاف : «وهذه الآيةُ بنظمها الذي رُتِّبَتْ عليه من إيقاع الغاضِّين أصواتهم اسماً

لـ"إنَّ" المُؤكِّدَة، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً ، والمبتدأ اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودعة ما هو

---

(٢) **انظر** : زاد المسير (٧/٢٢٠).

(٣) **انظر** : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/١٥١) .

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٣). **ومثل هذا المعنى ذكره : الفراء في معاني القرآن (٣/٧٠)** .

(٥) **انظر**: التسهيل لعلوم التنزيل(٢/٣٥٦)، والبحر المحيط (٨/١٠٦) .

(٦) **انظر** : إرشاد العقل السَّليم (٦/١١٣)، وروح المعاني (١٣/٢٩٠ـ٢٩١).
فائدة : أورد ابن كثير في تفسيره (٤/٢٦٣) أنَّ الإمام أحمد أخرج في كتاب الزّهد بسنده إلى مجاهد أنّه قال : «كُتِبَ إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ : يا أمير المؤمنين: رجلٌ لا يشتهي المعصية ، ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ، ولا يعمل بها ؟، فكتب عمر ـ رضي الله عنه ـ : «إنّ الذين يشتهون المعصية ولا يعلمون بها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾».

(٧) تيسير الكريم الرَّحمن (٧٩٩) .

جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرةً مُبهَماً أَمْرَهُ ناظرةٌ في الدّلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لِمَا فعل الذين وَقَّروا رسول الله ﷺ من خفض أصواتهم، وفي الإعلام بمبلغ عِزّة رسول الله ﷺ ، وقَدْر شرفِ منزلته، وفيها تعريضٌ بعظيم ما ارتكب الرَّافعون أصواتهم ، واستيجابهم ضدَّ ما استوجبَ هؤلاء»[1] .

وما زال الحديث عن رفع الصّوت بحضور النبيّ الأكرم ﷺ ، وقد سَلَفَ قريباً ما كان توطئةً لِمَا هو آتٍ بعدُ مِن مَلامَةِ الذين ينادون النبيّ ﷺ من وراء الحجرات ، وأنَّ هذا الصّنيع منهم عظيمٌ بحقّه ﷺ، فهو من قبيل الجهر المنهي عنه سلفاً وحيناً ومستقبلاً . قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾.

«ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرةٌ؛ وذلك أنّ المناداة من وراء الحجرات فيها رفع الصّوت، وإساءة الأدب، والله قد أمر بتوقير رسوله وتعظيمه»[2].

والمراد بالذين يُنادون النبيَّ ﷺ من وراء الحجرات : جماعةٌ من وفد بني تميم ، جاؤوا المدينة في سنة تسع ، وهي سنة الوفود ، وكانوا سبعين رجلاً أو أكثر . وكان سبب مجيء هذا الوفد إلى النبي ﷺ ما أتى بعضُه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، وبعضُه عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ : أنَّ بني العنبر منهم كانوا قد شَهَرُوا السِّلاح على خزاعة ، وقيل : كانوا منعوا إخوانهم بني كعب بن العنبر بن عمرو بن تيم من إعطاء الزّكاة ، وكان بنو كعب قد أسلموا من قبلُ سنةَ الوفود ، فبعث رسول الله ﷺ بشر بن سفيان ـ رضي الله عنه ـ ساعياً لقبض صدقات بني كعب، فمنعهم بنو العنبر ، فبعث النبيُّ ﷺ عُيَيْنَة بن حِصْن في خمسين من العرب ليس فيهم أنصاريٌّ ولا مهاجريٌّ ، فَأَسَرَ منهم أحد عشر رجلاً ، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبيّاً ، فجاء في أَثَرهم جماعةٌ من رؤسائهم؛ لفدائهم ، فجاؤوا المدينة ، وكان خطيبُهُم عُطَارد بن حَاجِب بن زُرَارَة ، وفيهم سادتُهُم : الزِّبْرِقَان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، والأَقْرَع بن حابس، ومعهم عُيينة بن حِصن الفَزَاري الغَطَفاني، وكان هذان الأخيران أسلما من قبلُ، وشهدا مع النبي ﷺ غزوة الفتح، ثُمَّ جاءَ معهم الوفدُ ، فلمّا دَخَلَ الوفدُ المسجد، وكان وقت القائلة ، ورسول الله ﷺ نائمٌ في حجرته، نادوا جميعاً وراء الحجرات : «يا مُحَمَّد اخرُج إلينا ثلاثاً، فإنّ مَدْحَنا زَينٌ ، وإنّ ذمّنا شينٌ ، نحن أكرم العرب»[3]، فلمَّا خرج إليهم رسول الله قالوا : «جئناك نفاخرك[4]، فَأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا» إلى آخر قصّتهم المعروفة المنقولة ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾[5].

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : «نزلت في وفد بني تميم حيث كان الأقرع بن حابس ، والزِّبْرِقَان ابن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وغيرهم ، وذلك أنهم وفدوا على رسول الله ﷺ فدخلوا المسجد ودنوا من حُجَر أزواج النبيّ ﷺ وهي تسعة ، فَعَجِلُوا ولم ينتظروا ، فنادوا بجملتهم : "يا مُحَمَّد اخرج إلينا ، يا مُحَمَّد اخرج إلينا" ، فكان في فعلهم ذلك جفاءٌ ، وبداوةٌ ، وقلّةُ توقير ، فتربص رسول الله ﷺ ثم خرج إليهم ، فقال له الأقرع بن حابس : "يا مُحَمَّد ، إن مدحي زَينٌ وذَمّي شَينٌ" ، فقال له رسول الله ﷺ: «ويلك ، ذلك الله ـ تعالى ـ» واجتمع الناس في المسجد ، فقام خطيبهم وفخر

---

(١) الكشاف (٥/٥٦٢) .

(٢) البحر المحيط (٨/١٠٨) .

(٣) **سَلَكُوا في عملهم هذا مسلك وفود العرب على الملوك والسَّادة**، وكانوا يأتون بيت الملك أو السيّد فيطفون به يُنادون ؛ ليؤذن لهم كما ورد في قصة ورود النّابغة على النّعمان بن الحارث الغسّاني . انظر : التحرير والتنوير (٢٦/٢٢٥) .

(٤) **جَرَوا فيه على عادة الوفود من العرب أن يذكروا مفاخرهم وأيّامهم** ، ويذكر المَوفُود عليهم مفاخرهم ، وذلك معنى صيغة المفاعلة **في قولهم** : "نفاخرك" ، كان جمهورهم وقتئذٍ لم يزالوا كفّاراً ، وإنّما أسلموا بعد أن تفاخروا وتناشدوا الأشعار. انظر : التحرير والتنوير (٢٦/٢٢٥).

(١) **انظر في ذلك** : جامع البيان (٢٦/١٢٠ـ١٢١)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٠/٣٣٠٢) ، وأسباب نزول القرآن (٤٠٤ـ٤٠٦) ، والنكت والعيون (٥/٣٢٧ـ٣٢٨) ، والوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/١٥١ـ١٥٢) ، ومعالم التنزيل (٤/٢١٠ـ٢١١) ، وزاد المسير (٧/٢٢٠ـ٢٢١) ، والجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٦٢ـ٢٦٣) ، والبحر المحيط (٨/١٠٦ـ١٠٩)، والدر المنثور (٦/٩٠ـ٩١) ، وروح المعاني (٢٦/٢٩٣ـ٢٩٥)، والتحرير والتنوير (٢٦/٢٢٤ـ٢٢٥)، والمحرر في أسباب نزول القرآن (٢/٩١٤ـ٩١٦).

، فأمر رسول الله ﷺ ثابت ابن قيس بن شماس فخطب وذكر الله والإسلام ، فأربى على خطيبهم ، ثم قام شاعرهم فأنشد مفتخراً ، فقام حسان بن ثابت ففخر بالله وبالرَّسول وبالبَسَالَة ، فكان أشعر من شاعرهم ، فقال بعضهم لبعض : "والله إن هذا الرَّجل لَمُؤتَى له ، لخطيبه أخطبُ من خطيبنا ، ولشاعِرُهُ أشعر من شاعرنا" ، ثم نزلت فيهم هذه الآية . هذا تلخيص ما تظاهرت به الروايات في هذه الآية»[1].

وقيل إنَّ سبب نزولها : أنَّ ناساً من العرب قال بعضهم لبعض : "انطلقوا بنا إلى هذا الرَّجل ، فإن يكن نبيّاً نكن أسعد النّاس به، وإن يكن مَلِكاً نَعِشْ في جناحه"، فجاؤوا ، فجعلوا يُنادون : يا مُحَمَّد، يا مُحَمَّد ، فنزلت تلك الآية ، قاله زيد بن أرقم ﷺ .

وعلى كلٍّ فإنَّ تلك الآيتين الكريمتين قد نزلتا في شأن قوم من الأعراب لم يُوَفَّقوا في ندائه ﷺ للأسلوب الأمثل، وظاهر السّياق أنّهم جماعةٌ بدلالة ﴿ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ ﴾ لا واحد .

وفي قوله ـ ﷻ ـ : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وصفٌ لهم بعدم العلم ، وعبَّر عن العلم بالعقل؛ لأنّه من نتائجه ، قاله ابن بَحْر . وقيل : لا يعقلون أفعال العقلاء؛ لتهوّرهم وقلّة أناتهم ، وهو محتمل[2] .

وهذا العقل المنفي عنهم آنفاً مرادٌ به : عقل التأدّب الواجب في معاملة النبيّ ﷺ، أو عقل التأدّب المفعول عنه في عادتهم التي اعتادوها في الجاهلية من الجفاءِ والغلظةِ والعنجهية ، وإنّما قال الحقُّ : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾؛ لأنَّ منهم مَن لم ينادِ النبيَّ ﷺ مثل ندائهم، ولعل المقصود استثناء اللَّذين كانا أسلما من قبلُ، فهذه الآية تأديبٌ لهم وإخراجٌ لهم عن مَذَامّ أهل الجاهلية .

قال ابن جُزَي ـ رحمه الله ـ : «﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون فيهم قليلٌ ممن يعقل، ونَفَي العقل عن أكثرهم لا عن جميعهم، والآخر : أن يكون جميعهم ممن لا يعقل ، وأوقع القِلَّة موضع النَّفي، والأول أظهر في مقتضى اللَّفظ، والثَّاني أبلغ في الذَمّ»[3] .

قال ابن سِعْدي ـ رحمه الله ـ :«فذّمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أنَّ من العقل وعلامته استعمال الأدب، فأدبُ العبد عنوانُ عقله،وأنّ الله مريدٌ به الخير»[4] .

ثُمَّ إنَّ الحق ـ تعالى ـ وبَّخهم لِمَا فيه تأديبٌ لهم ، وتعليمٌ لمحاسن الأخلاق، وإزالةٌ لعوائد الجاهلية الذَّميمة، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

ومعنى الآية : لو أنَّ أولئك القوم انتظروا خروجك ، وتريَّثوا فلم يعجلوا عليك ، لكان ذلك أصلح لهم في أمر دينهم ودنياهم ، سيّما وقد كان ﷺ لا يحتجب عن النَّاس إلاَّ في أوقاتٍ يسيرةٍ يشتغل فيها بمهمّات نفسه، فكان إزعاجه ﷺ في تلك الحالة إبّان قيلولته من سوء الأدب البالغ . وفي صبرهم أيضاً إكسابٌ لهم الوقار والهَيبة بين أهل المدينة ، واستدعاءٌ لهم الإقبال من رسول الله ﷺ على وجه الراحة والقبول لا على وجه الكُرْه والانزعاج،ناهيك عمّا كان في رفع الصَّوت في مسجده ﷺ من جَلافَة !.

قال ابن جُزَي ـ رحمه الله ـ : «﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ يعني : خيراً في الثَّوابِ ، وفي انبساط نفس النبيّ ﷺ، وقضائه حوائجهم، وإنكارُ فعلهم فيه تأديبٌ لهم ، وتعليمٌ لغيرهم»[5] .

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «فقوله : ﴿ خَيْرًا ﴾ يجوز أن يكون اسم تفضيل، ويكون في المعنى: لكان صبرهم أفضل من العَجَلَة . ويجوز ان يكون اسما ضدّ الشّرّ ، أي : لكان صبرهم خيراً ؛ لِمَا فيه من محاسن الخُلُق بخلاف ما فعلوه فليس فيه خيرٌ»[6] .

خيرٌ»[6] .

وقد ذُكِر وجهٌ آخر للخيرية في هذه الآية : مِن أنَّ أولئك الوفد جاؤوا شفعاء في أُسارى بني العنبر ـ كما قد مضى ذِكْره ـ،فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم،وفَادَى النصف الآخر، ولو أنهم صبروا

---

(٢) المحرر الوجيز (١٥/١٣٤ـ١٣٦).
(٣) **انظر** : النكت والعيون (٥/٣٢٨) .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل(٢/٣٥٦) .
(٥) تيسير الكريم الرَّحمن (٧٩٩) .
(١) التسهيل لعلوم التنزيل(٢/٣٥٦) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/٢٢٧) .

والتزموا الآداب المرعية مع رسول الله ﷺ لكان من بركة هذا الالتزام إعتاق جميعهم بدون أدنى فداء![1].

وآيات هذا المقطع الكريمة جامعةٌ جملةَ من البلاغة القرآنية : متمثلة في العَرْض العَالي لحال أولئك المنادين من وراء الحجرات، ولكأنَّ القارئ لها ينظرُ موقفَ أولئك الأعراب بعين رأسه وقلبه ، مع حِفْظ قدر النبيّ ﷺ، والإطماع لهم في العفو والتوبة نظير تجاسرهم على تخطي ذلكم السّياج المهيب مع النبيّ المُوَقَّر ﷺ ، ومن قبلُ استوعبت الآيات حقَّه ﷺ على المؤمنين بوجوب عدم التقدّم بين يديه بأمر أو نهي أو رأي أو فعل أو قول، وبالنّهي البالغ عن رفع الصّوت بحضرته ومعه، ومَدْح مَن امتثل التوجيه بأنَّ قلبه قد امتحنه الله للتقوى، وأنّهم أهلٌ لكلّ مغفرةٍ وأجر عظيم، فيا سبحان من أنزل هذا الذكر الحكيم كم حَوى من التأديبات، والمقاصد، والتوجيهات البالغات في أسطر قليلة، وألفاظ موجزة محكمة !.

وقد أَتَى في الكشّاف ما نصُّه:«فورود الآيةِ على النَّمط الذي وَرَدَتْ عليه فيه ما لا يخفى

على النّاظر : من بيّنَاتِ إكبار محلِّ رسول الله ﷺ وإجلاله : منها : مجيئها على النّظم المُسَجِّل على الصَّائحين به بالسَّفه والجهل ؛ لِمَا أقدموا عليه . ومنها : لفظ "الحجرات" وإيقاعها كنايةً عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه . ومنها : المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم . ومنها : التعريف باللاَّم دون الإضافة . ومنها : أن شَفَعَ ذمَّهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلّة ضبطهم لمواضع التَّمييز في الخطابات ؛ تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسليةً له، وإماطةً لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم ، وهلّم جراً من أوّل السّورة إلى آخر هذه الآية ، فتأمّل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلّها من غير حصر ولا تقييد ، ثُمَّ أردف ذلك النّهي عمّا هو من جنس التقديم من رفع الصّوت والجهر ، كأنَّ الأوّلَ بساطٌ للثّاني ووطاءٌ لِذِكْرِه ، ثُمَّ ذَكَر ما هو ثناءٌ على الذين تَحَامَوا ذلك فَغَضُّوا أصواتهم؛ دلالة على عظيم موقعه عند الله ، ثُمَّ جيء على عَقِبِ ذلك بما هو أطمّ وهجنته أتمّ : من الصّياح برسول الله ﷺ في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر كما يُصاح بأهون النّاس قدراً ؛ لِيُنَبِّه على فظاعة من أجروا وجسروا عليه؛ لأنّ من رفع الله قدره على أن يُجهر له بالقول حتى خاطبه جلّة المهاجرين والأنصار بأخي السِّــرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً ، ومن هذا وأمثاله يُقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب»[2] .

ويحسن في خَتم هذا المبحث أن يُحَلَّى جِيدُهُ ببعض النّكاتِ المُلْتَقَطَة؛ منها[3]:

١. أنَّ حرمة النبيّ ﷺ ميّتا كحرمته حيًّا ، وكلامه المأثور بعد موته في الرِّفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قُرِئ كلامه ﷺ وجبَ على كلِّ حاضر ألاَّ يرفع صوته عليه، ولا يُعْرِض عنه ، كما كان ذلك في مجلسه عند تلفُّظه به، وقد نبَّه الله ـ تعالى ـ على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذَا قُرِىَٔ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ [الأعراف:٢٠٤] ، وكلام النبيّ ﷺ من الوحي ، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلاَّ معاني مستثناة بيانها في كتب الفقه .

وقد سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ صوت رجلين في مسجد النبيّ ﷺ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : "أتدريان أين أنتما ؟!"، ثُمَّ قال : "مِن أين أنتما؟"، قالا: "من أهل الطّائف"، فقال : "لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً" . وقال العلماء : "يُكره رفع الصّوت عند قبره ﷺ كما كان يُكره في حياته ﷺ؛ لأنّه محترمٌ حيًّا وفي قبره ﷺ دائمًا" . وكره بعضُ العلماء رفع الصّوت في مجالس العلماء ؛ تشريفا لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء .

قال صاحب أضواء البيان ـ رحمه الله ـ : «وبه تَعْلَم أَنَّ مَا جَرَتْ به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صَخَبٍ

---

(١) الكشاف (٥/٥٦٤_٥٦٥) .

(٢) **انظر في كلِّ ذلك** : أحكام القرآن للجصاص (٣/٥٢٩)، والكشاف (٥/٥٦٥) ، وأحكام القرآن لابن العربي (٤/١٧١٤_١٧١٥)، والجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٦٠_٢٦١) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٢٦٣) ، وأضواء البيان (٧/٤٠٩) .

(٣) **يُنسب هذا القول إلى مقاتل :**
انظر : تفسير مقاتل بن سليمان (٣/٢٥٩) ، والنكت والعيون (٥/٣٢٨) ، ومعالم التنزيل (٤/٢١١)، وزاد المسير (٧/٢٢٢) ، والجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٦٤) .

ولَغَطٍ، وأصواتهم مرتفعة ارتفاعا مُزْعِجًا كلّه لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر» .

٢. ليس النّهي الوارد في قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ نهيًا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم إلاّ أن يكلّموه بالهمس والمخافتة ، وإنّما نُهُوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة، وهو الجهر المنعوت بماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أُبَّهة النّبوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرُّتَب وإن جَلَّتْ عن رتبتها. وعليه فإنَّ عدم احترام النبي ﷺ المشعر بالغض منه، أو تنقيصه ﷺ، والاستخفاف به، أو الاستهزاء به ، ردَّةٌ عن الإسلام وكفر بالله . وقد قال ـ تعالى ـ في الذين استهزؤوا بالنبي ﷺ ، وسخروا منه في غزوة تبوك لَمَّا ضَلَّتْ راحلته : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ ﴾ [التوبة: ٦٥ـ٦٦] .

٣. هذه الآيات وإن كانت نازلةً في تعظيم النبيّ ﷺ، وإيجاب الفرق بينه وبين الأُمّة ، فإنّه تأديبٌ لنا فيمَن يلزمنا تعظيمه من والدٍ، وعالم، وولي أمر، وناسكٍ، وقائم بأمر الدّين، وذي سنٍّ وصلاح، ونحو ذلك؛ إذ تعظيمه بهذا الضّرب من التعظيم في ترك رفع الصّوت عليه، وترك الجهر عليه، والتّمييز بينه وبين غيره ممن ليس في مثل حاله، وفي النّهي عن ندائه من وراء بابٍ، والمخاطبة له بلفظ الأمر؛ لأنَّ الله قد ذمَّ هؤلاء القوم بندائهم إيّاه من وراء الحجرة، وبمخاطبته بلفظ الأمر في قولهم : "اخرج إلينا".

وقد طبّق السّلف ـ رحمهم الله ـ مثل هاتيك المعاني وامتثلوها ، فهذا ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يتوسّد عتبة باب زيد بن ثابت الأنصاري ﷺ فترة الظهر ، والرّيح تحثو في وجهه التراب، ولا يطرق عليه الباب حتى يخرج لصلاة العصر ، ولَمّا يُعاتبه زيد ﷺ لمكانة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من رسول الله ﷺ ، يأخذ بلجام دابته ﷺ يقودها بين يديه ، ويقول له : «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا»[(١)]. وحُكِيَ عن أبي عبيد القاسم بن سلام ـ رحمه الله ـ أنّه قال : «ما دققتُ باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه»[(٢)]. ومثل صنيعه هذا فعل الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ مع شيخه عبد الرزاق ابن همام الصَّنعاني ـ رحمه الله ـ لَمَّا وَفَدَ عليه صنعاء[(٣)]. وبمثل هذا الصَّنيع بورك لهم في أعمارهم، وفي علمهم ، وفيما قَدَّمُوه وبَذَلُوه ، ورُفِعَ ذِكْرُهُم في الآخِرين إلى يوم الدّين !.

وبعدُ : فذلك أدبٌ حميدٌ ، وخلقٌ رفيعٌ ساقه الربّ ـ تعالى ـ لجمهور المُتلَقّين عن النبيّ ﷺ بكلّ رحمةٍ وبيان ونُصْح، هذَّبَ به الطّباع ، ونَحَى بالسُّلوك إلى الأفضل، فَعَقَلَ الصَّحابةُ ذلك عن الله ـ تعالى ـ في حينها ، وعَقَلَتِ الأُمّةُ بعدهم حقَّ رسولها الأكرم ﷺ ، فهي سائرةٌ ـ بحول الله ـ على هذا الدّرب، لا تحول ولا تزول ، وليس بِضَارّها تنقّص الكفرة الملحدين لشخص نبيّها الكريم ﷺ إلاّ بقدر ما تديره في أذهانها من وجوب إيجاد شتى الطُرق وكافّة الوسائل الصّادة لأولئك الكفرة عن مثل تلك الأُحْمُوقَات ، ومِن ثَمَّ لعل أن يكون في ذلك الشرّ العتيد الخير الوافر لأُمم لم تصلها دعوته ﷺ، ولا وقفت يوماً على نهجه ، أو طرق مسامِعَها سَمْتُهُ ودينه هذا القويم : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١]

المبحث السّادس : تأديبُ المؤمنين بنهيهم عن إشغاله ﷺ بكثرة المناجاة[(٤)] .

---

(١) انظر : فيض القدير شرح الجامع الصّغير (٣/٣٣٣) .

(٢) انظر : فيض القدير شرح الجامع الصّغير (٥/٢١٥) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (١١/١٧٧) .

(٤) **النَّجوى** : مصدر بمعنى التناجي، وهو المُسَارَّة، مأخوذة من "النَّجوة"، وهي ما ارتفع من الأرض، فالمتناجيان يَخْلُوانَ بِسِرِّهِمَا كخلوّ المرتفع من الأرض عما يتصل به.

وقيل: النَّجوى مِن المُنَاجَاة، وهي الخلاص، وكأنّ المتناجيَيْن يتعاونان على أن يخلّص أحدُهُما الآخر .

بعثَ الله ـ تعالى ـ نبيّه ﷺ لتبليغ هذا الدّين للعالمين ، والصَّبر على المشقّة حتى يُظهره الله على الدّين كلّه ولو كره الكافرون، ولقد كلّفه الحقّ ـ تعالى ـ مهامَّ عظيمةً ، لوما تأييده ﷻ ـ له فيها لَمَا قام بها، ولولا توفيقه ـ ﷻ ـ إيّاه بالمُوَازنة بينها لَعَجِزَ عنها، وهي مهام ـ لعمرو الله ـ شديدةٌ ومتنوعةٌ على شتَّى الأصعدة : أفرادا وجَمَاعَاتٍ، وشتى المستويات : مؤمنين وكفّاراً، وهي كذلك شاملةٌ كافّة مظاهر الحياة : الاجتماعية، والأُسرية، والاقتصادية، والسّياسية، والسِّلْم والحرْبِ ، والغَزو والقَرار، حتى أضحى وقته ﷺ أَوْزَاعاً لكلّ هاتيك المجالات، فضلاً عمّا كان يقوم به ﷺ من عبادة ربّه الأكرم ، من طول تهجّد ، وكثرة صلاة ، وصيام ، وذِكْر لله ـ ﷻ ـ ، ومن ثَمَّ فلم يَعُد ثمَّة فسحةٌ ولو يسيرةٌ لا يستوعبها غَرَضٌ جَزْلٌ من أغراض المسلمين : كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأُنثاهم، حُرّهم ورقيقهم .

ولذا فكُلُّ مَن أتي بعدُ يُشَاغِل النبيَّ ﷺ بمناجاةٍ لا نَفْعَ مِن ورائها إلاَّ صرف وجهه الشّريف إلى رَبِّهَا، أو بمحادثة لا عَود منها سوى إظهار مكانة صاحبها عنده ﷺ، هو في الحقيقةِ يَغُضُّ الطّرف عن أنَّ ذلك إهدارٌ بليغٌ لوقت نفيس ، رسول الله ﷺ في أمس الحاجةِ إليه أن يَصْرفَه لقضاءِ مصالح المسلمين المتكاثرة والمُلِحّة، ومن ثَمَّ فلا بُدَّ أن يأتيَ الوحيُ يُعَلِّم مَن يقومُ بذلك أنَّ فِعْلَه ليس صواباً ، وكذا يُشرّع الوسائل التربوية الحكيمة التي تَحُدُّ من تلك الظّاهرة، وترجع الأمور إلى نصابها اللاّئق بها ، والحقُّ ـ ﷻ ـ في هذا الصّنيع يُمَهِّد ويُرْسِي لوناً فريداً «من ألوان الجهود التربوية لإعداد تلك الجماعة المسلمة في الصَّغير والكبير من شئون الشُّعور والسُّلوك»[1] .

ناهيك عَمَّا جَرَت به عادة النّفوس مِن أنَّها إذا رَأَتْ عظيماً ترجو خيره وتطمع في نَوالِهِ ، وحَوْلَهُ مَن يُناجيه ويُخَافِتُ له القول سِرَّاً فإنّها تتوجَّس خيفةً مما يدور بينهم، وتَتَطَلَّع عَنوةً لِدَرْكِ كلامِهم، فضلاً عَمّا سيقذفه الشيطان الخبيث فيها من شتَّى السّيئات، وتهويل الأمور، وما يُصَوِّر لها من تخيّلاتٍ تعود عليها بالأذى النَّفسيّ البليغ، فكيف إذا تكررت هذه المُسَارَّة كثيراً؟! فكيف إذا كانت في زَمن حَرْبٍ وعدوٍّ متربّص؟!، فكيف إذا كانت مع أشرفِ كلّ شريف، وأعظم كلّ عظيم من البشر محمَّدٍ ﷺ ؟!.

وهنا أدبُ بليغٌ من هذا القبيل أَدَّبَ به الحقُّ ـ تعالى ـ معشر الصَّحابة الكرام ـ ﷺ ـ زَمَنَ النُّبوة، وذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة:١٢ـ١٣] . والقرآن يعلّمهم «أدبا آخر في علاقتهم برسول الله ﷺ ، فيبدو أنّه كان هناك تزاحمٌ على الخلوة برسول الله ﷺ ليُحَدّثه كلُّ فردٍ في شأن يَخُصُّه ، ويأخذ فيه توجيهه ورأيه، أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله ﷺ الجماعية، وعدم الشّعور بقيمة وقته، وبجديّة الخلوة به، وأنّها لا تكون إلاَّ لأمر ذي بال، فشاء اللهُ أن يُشْعِرَهم بهذه المعاني بتقرير ضريبةٍ للجماعةِ من مال الذي يريد أن يخلو برسول الله ﷺ، ويقتطع من وقته الذي هو من حقّ الجماعة ، في صورة صدقةٍ يُقَدِّمُها قبل أن يطلبَ المناجاة والخلوة»[2].

وقد ذُكِر في سبب نزولها[3] أقوالٌ؛ هي:

١. ما رُوِيَ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة : أنَّ قوما مِن شباب المسلمين كثرت مناجاتهم للنبيّ ﷺ في غير حاجةٍ ؛ لتظهر منزلتهم ، وكان النبيُّ ﷺ سَمْحَا

انظر : مفردات ألفاظ القرآن (٧٩٢ـ٧٩٣) مادة "ن، ج، و".

(١) في ظلال القرآن (٣٥١٣/٦).

(٢) في ظلال القرآن (٣٥١٢/٦) .

(٣) **انظر تلك الأسباب فيما يلي** : تفسير مقاتل (٣٣٤/٣)، وجامع البيان (٢٠/٢٨ـ٢١)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣٣٤٤/١٠)، وأسباب نزول القرآن (٤٣٢)، والنكت والعيون (٤٩٣/٥)، ومعالم التنزيل (٣١٠/٤)، وأحكام القرآن لابن العربي (١٧٦٢/٤)، والمحرر الوجيز (٤٥٢/١٥)، وزاد المسير (١٢/٨)، والجامع لأحكام القرآن (٢٥٥/١٧) ، والتسهيل لعلوم التنزيل (٤٢٣/٢)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤١٧/٤) ، والدر المنثور (٢٧٢/٦ـ٢٧٣)، وروح المعاني (٢٢٤/٢٨ـ٢٢٥) .

لا يَرُدُّ أَحَدَا ، فنزلت هذه الآية مشدّدةً في أمر المناجاة.

٢. أنَّها نزلت في الأغنياء، وذلك أنّهم كانوا يأتون النبيَّ ﷺ فيُكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كَرِه رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم؛ فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ هذه الآية ، وأمر بالصَّدَقة عند المُنَاجَاة، فأمّا أهل العسرة فلم يجدوا شيئا ، وأما أهل الميسرة فَبَخِلُوا، واشتدّ ذلك على أصحاب النبيّ ﷺ ، فنزلت الرّخصة . قاله مقاتل .

٣. أنَّها نزلت بسبب أنَّ قوماً من المسلمين كانوا يَسْتَخْلُون النبيَّ ﷺ ويُناجونه، فظنَّ بهم قومٌ من المسلمين أنّهم ينتقصونهم في النَّجوى، فشقَّ عليهم ذلك ، فأمرهم الله ـ تعالى ـ بالصّدقة عند النّجوى ؛ ليقطعهم عن استخلائه . قاله الحسن البصري .

٤. أنَّها نزلت بسبب أنَّ المنافقين واليهود كانوا يُنَاجُونَ النبيّ ﷺ ، ويقولون : إنّه أُذُنٌ يَسْمَعُ كلَّ ما قيل له، وكان ﷺ لا يمنع أحدا مناجاته، فكان ذلك يشقّ على المسلمين ؛ لأنّ الشيطان كان يُلقي في أنفسهم أنّهم ناجَوْهُ بأنَّ جموعا اجتمعت لقتاله، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ...الآية﴾[٩]،فلم ينتهوا،فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النَّجْوى؛ لأنّهم لم يُقَدِّمُوا بين يدي نجواهم صَدَقَة، وشقَّ ذلك على أهل الحوائج والمؤمنين، وامتنعوا من النَّجوى؛ لِضَعْف مقدرة كثير منهم عن الصَّدقة، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : لا نطيقه، فخفّف الله عنهم بما بعد الآية. قاله زيد بن أسلم .

وبالتأمّل في هاتيك المذكورات من أسباب النزول يظهر أنّها «أقوالٌ في سببِ نزولِهَا متخالفةٌ، ولا أحسبهم يريدون منها إلاّ حكايةَ أحوالٍ للنَّجوى كانت شائعةً، فلمّا نزل حكم صدقة النّجوى أقلَّ النّاسُ من النَّجوى، وكانت عبارات الأقدمين تجري على التسامح، فيُطلقون على أمثلةِ الأحكام وجزئيات الكليّات اسم أسباب النُّزُول»[(١)].

وعلى كُلٍّ فقد كان هذا التشريع للصَّحابة ﷺ من وجوب[(٢)] إعطائهم صدقةً للفقير حين يَعْمَدُون للذّهاب إلى النبي ﷺ لمناجاته يحمل بين طيّاته حِكَماً عظيمةً، وفوائد عديدة ترجع بالخير على نفس المتصدّق وعلى المجتمع المسلم حينئذٍ، سيّما والوقت إذ ذاك وقت تشريع ، وتربية ، وتهذيب، وتزكية، ومن هاتيك الحِكَم والفوائد[(٣)]:

- إعظام شأن الرّسول ﷺ ، وإعظام أمر مناجاته ، فإنَّ الإنسان إذا وجد الشّيء مع المشقّة استعظمه واستحلاه، وإن وجده بسهولة استحقرة وقَلاه .
- التخفيف عن النبيّ ﷺ من كثرة المناجاة ، إذ بعد نزولها شحّ كثيرٌ من النّاس، فكَفُّوا عن المسألة.
- نفع كثير من الفقراء بتلك الصَّدَقة المقدَّمَة قبل المناجاة.
- أنَّ بها يتميّز محبّ الآخرة عن محبّ الدّنيا، فإنَّ المال محكّ الدّواعي! ومن ثَمَّ يظهر التَّمايز بين المؤمن المخلص، والمنافق المراوغ.
- تحقيق تأديب المجتمع المسلم وقتئذٍ مؤمنهم ومنافقهم بتقليص تلك الظّاهرة التي كانت إلى حدٍ بعيد قد بَدَى

---

(١) التحرير والتنوير (٤٢/٢٨).

(٢) **اختلف العلماء في الأمر في قوله** : ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ **هل هو للوجوب أو للندب ، فالجمهور على أنّه للوجوب**، واختاره الفخر الرّازي ورجّحه بأنّه الأصل في صيغة الأمر ، **وبقوله** : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإنَّ ذلك لا يُقال إلاّ فيما بفقده يزول الوجوب. **وكذلك قوله** : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾[١٣] مؤذنٌ بأنَّ الأمر فيها للوجوب.
وقال فريقٌ : الأمرُ للنَّدب ، وحجّتهم : أنه قيّد الأمر بكون امتثاله خيراً لهم من عدم الامتثال وأطهر لنفوسهم يدلّ على أنّه أمر ندبٍ لا أمر وجوب . **وعلى ذلك الشّوكاني وغيره . والظّاهر ـ والله أعلم ـ قول الجمهور . انظر في ذلك** : التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" (٢٧١/٢٩)، وفتح القدير (١٩٠/٥)، والتحرير والتنوير (٤٤/٢٨) .

(٣) **أشار الفخر** ـ رحمه الله ـ **إلى الأربع الفوائد الأولى ، ولم يتطرّق إلى الأُخْرَيَيْن** . انظر : التفسير الكبير (٢٧١/٢٩) .

أثرها غير المحمود يسري بينهم، بدءً بالنبيّ ﷺ إذ كَرَهَ كثرةَ المسائل والمُسَارَّة ؛ لتضييقها عليه في وقته ، ولِمَا قد يترتّب عليه من إضافة تبعاتٍ جديدة على المؤمنين بتشريع أحكام جديدة ربما كانت ناتجة عن هاتيك المسائل، وأيضاً مِن بعض المؤمنين انتهاءً، وذلك بما يقع في خَلَدِهم مِن الظّنون السّيئة التي كانت تنتابهم؛ خشيةَ هجوم الأعداء، والأرض وقتئذٍ أرض خوفٍ وتربُّص!.

- استشعار المؤمنين وقتئذٍ فضل الله ـ تعالى ـ عليهم ، ورحمته بهم ، ورعايته إيّاهم بما خفّف عنهم بعدُ من أمر تلك المناجاة ، فنسخ العمل بها .

وكثيرٌ من تلك المعاني السابقة يجمعها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ ﴾، فإنَّ هذه الجملة هي تعريفٌ بحكمة هاتيك الصَّدقة، وعِلَّةِ فَرْضِيَّتِهَا ، والإتيان بـ"خير" منكَّراً ، وبـ"أطهر" على وزن "أفعل"يدلُّ على ذلك، و﴿خَيۡرٞ﴾ هاهنا يجوز أن يكون اسم تفضيل ، وأصله : "أَخْيَر"، وهو المزاوج لقوله : "وأطهر"، أي : ذلك أشدّ خيريّة لكم من أن تُنَاجُوا الرَّسول ﷺ بدون تقديم صدقة، وإن كان في كلّ خير ، ومثله قوله : ﴿ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ ﴾ [البقرة:٢٧١] ، ويجوز أن يكون اسماً على وزن "فَعْل"، وهو مقابل الشَّرّ، أي : تقديم الصَّدقة قبل النّجوى فيه خيرٌ لكم عظيمٌ ، وهو تحصيل رضى الله ـ تعالى ـ في حين إقبالهم على رسوله ﷺ ، فإنَّ ذلك أزكى للنفوس، وأكرم عند الله ـ تعالى ـ ، فيحصل من الانتفاع بالمناجاة ما لا يحصل مثله بدون تقديم الصّدقة. وأمّا "أطهر" فهو اسم تفضيل لا محالة، أي : أطهر لكم، بمعنى : أشدّ طهراً، والطّهر هنا معنوي، وهو طهرُ القلوبِ ، وطهر النّفوس وزكاؤها ؛ لأنَّ المتصدّق تتوجّه إليه أنوار ربّانية من رضَى الله عنه ، فتكون نفسه زكيّة ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] ، ومنه سُمِّيَتْ الصّدقة زكاة .

و مع هذا التشريع الجديد فإنَّ الحَقَّ ـ تعالى ـ لم يزل بالمغفرة موصوفا، وبالحلم والإحسان والرّحمة معروفا، فلقد عذر ﷻ العاجزين عن تقديم الصّدقة بقوله: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾: أي : فان لم تجدوا ما تتصدّقون به قبل النّجوى غفر الله لكم المغفرة التي كانت تحصُل لكم لو تصدّقتم؛ لأنَّ مَن نَوَى أن يفعل الخير لو قَدَر عليه كان له أَجرٌ على مجرّد النيّة الصّالحة، وقد قال ﷺ : «إنّما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نَوَى»[(١)]، وقال ﷺ : «إنّ بالمدينة أقواما ما سِرْتُم مَسيرا، ولا قطعتم واديا إلاّ كانوا معكم»، قالوا يا رسول الله : وَهُم بالمدينة؟!، قال : «وهم بالمدينة، حبسهم العُذْرُ»[(٢)] . والأحاديث في هذا المعنى عديدة . وقوله: ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مِن قوله: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ وَرَدَ في مقابلة ما فاتَ غير الواجد ما يتصدّق به من تزكية النّفس وتطهيرها؛ إشعارًا بأنَّ رحمة الله ـ تعالى ـ تنفعه.

قال الطَّاهر ـ رحمه الله ـ : «والذي يظهر لي : أنَّ هذه الصَّدَقَة شَرَعَهَا اللهُ وفرضها على مَن يجد ما يتصدّق به قبل مناجاة الرّسول ﷺ ، وأسقطها عن الذين لا يجدون ما يتصدّقون به ، وجعل سببها ووقتها هو وقت توجّههم إلى مناجاة الرّسول ﷺ ، وكان المسلمون حريصين على سؤال رسول الله ﷺ عن أمور الدّين كلّ يوم ، فشرع الله لهم هذه الصَّدقة كلّ يوم ؛ لنفع الفقراء نفعاً يومياً ، وكان الفقراء أيّامئذٍ كثيرين بالمدينة منهم أهل الصّفة ، ومعظم المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم .

والأظهر أنَّ هذه الصَّدقة شُرِعَتْ بعد الزّكاة ، فتكون لحكمةِ إغناءِ الفقراء يوماً فيوماً؛ لأنَّ الزّكاة تُدْفَع في رؤوس السّنين، وفي مُعَيَّن الفصول ، فلعلَّ ما يصل إلى الفقراء منها يستنفدونه قبل حلول وقت الزّكاة القابلة. وعن ابن عباس: أنَّ صدقة المناجاة شُرِعَتْ قبل شرع الزّكاة، ونُسِخَتْ بوجوب الزّكاة، وظاهر قوله في الآية التي بعدها : ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أنَّ الزّكاة

---

(١) **متفقٌ عليه : انظر** : صحيح البخاري (١/٣) ح(١) ، تحقيق : البغا. **وقد أخرجه في صحيحه في سبعة عشر موطناً .**
وصحيح مسلم (٣/١٥١٥) ح(١٩٠٦)، تحقيق : عبد الباقي.

(٢) صحيح البخاري (٣/١٠٤٤) ح(٢٦٨٤) ، و(٤/١٦١٠) ح(٤١٦١) ، تحقيق : البغا.

شَرْعٌ مفردٌ معلومٌ، ولعلَّ ما نُقِلَ عن ابن عباس إن صحَّ عنه أراد أنّها نسخت بالاكتفاء بالزَّكاة»[1].

وقال الشَّيخ ابن سعْدِي ـ رحمه الله ـ : «يأمر الله ـ تعالى ـ المؤمنين بالصَّدَقة أمام مناجاة رسول مُحَمَّد ﷺ ؛ تأديبا لهم وتعليما، وتعظيماً للرَّسول ﷺ ، فإنّ هذا التعظيم خيرٌ للمؤمنين وأطهر؛ أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطَّهارة من الأدناس التي من جملتها ترك احترام الرّسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنّه إذا أمر بالصَّدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزانا لِمَن كان حريصا على الخير، والعلم، فلا يُبالي بالصَّدقة، ومن لم يكن له حرصٌ ولا رغبةٌ في الخير وإنّما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكّف بذلك عن الذي يشُقُّ على الرَّسول، هذا في الواجد للصَّدقة، وأمّا الذي لا يجد الصّدقة فإنّ الله لم يُضيّق عليه الأمر، بل عَفَا عنه وسامحه، وأباحَ له المناجاة بدون تقديم صدقةٍ لا يَقْدِرُ عليها»[2].

ومَجِيءُ قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ في مكانه المناسب بين آيات تلك السّورة المباركة، إذ قد قَفَى آيات النَّجوى وآية المجالس : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾[٩ـ١١]. وآية تقديم الصَّدقة عند المناجاة «استئنافٌ ابتدائي عادَ به إلى ذكر بعض أحوال النَّجْوَى، وهو مِن أحوالها المحمودة، والمناسبة هي قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، فهذه الصَّدَقة شَرَعَها الله ـ تعالى ـ ، وجعل سببها مناجاة الرَّسول ﷺ، فَذُكِرَتْ عَقِبَ آي النَّجْوى ؛ لاستيفاءِ أنواع النَّجْوى من محمودٍ ومذموم»[3].

ومِن لُطْفِ الحقِّ ﷻ وحكمته ورحمته بعباده المؤمنين صحابةِ نبيه ﷺ أجمعين ـ أنَّ العمل بآية الصَّدقة وقت المناجاة لم يدم طويلاً ، وإنّما نُسِخَت بالآية بعدها[4]: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾. «واتّفق العلماء على أنَّ حكم هذه الآية منسوخ»[5].

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (٨٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٤٣/٢٨) .

(٣) التحرير والتنوير (٤٢/٢٨) .

(٤) **روي ذلك عن ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ ، **ومجاهد ، وقتادة ، وعكرمة ، والحسن البصري** . **انظر في ذلك** : جامع البيان (٢٢/٢٨)، والجامع لأحكام القرآن (٢٥٦/١٧) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤١٧/٤) ، والدر المنثور (٢٧٣/٦).

(٥) التحرير والتنوير (٤٦/٢٨). **إلاّ ما ذكره الفخر الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني من أنّه ليس هاهنا نسخ ، وقال** : «إنَّ المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصّدقات وإنّ قوماً من المنافقين تركوا النّفاق ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقياً فأراد الله أن يميّزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصّدقة على النّجوى ؛ ليتميّز هؤلاء الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عمن بقيَ على

لكنَّهم اختلفوا هل نُسِخَتْ قبل العَمل بها أو عَمِلُوا بها بُرْهَةً:

فقالت طائفة: إنّها لم يُعمل بها، لكن استقرّ حكمها بالعزم عليه؛ كأمر إبراهيم ـعليه السلامـ في ذبح ابنه، ويُمثّلون بهذه الآية للنَّسخ قبل التَمكُّن[1]. وقالت طائفة: بل عُمِلَ بها بُرْهَة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «ما بقي إلاَّ ساعة من نهار حتى نسخ» . وكذا قال قتادة .

وقال مقاتل بن حيّان: عشر ليال . وقال الكلبي: ليلة واحدة .

وقد ورد عند الحاكم في المستدرك[2] عن علي بن أبي طالب ـرضي الله عنهـ أنّه قال : «إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحدٌ قبلي ولا يعمل بها أحدٌ بعدي آية النَّجوى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ قال لي النبيُّ ـصلى الله عليه وسلمـ : ما ترى دينار؟، قلت: لا يطيقونه. قال: فنصف دينار ؟، قلت: لا يطيقونه، قال: فكَم ؟، قلت: شعيرة، قال: إنّك لزهيد، قال: فنزلت: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ... الآية﴾ فبيَ خَفَّفَ اللهُ عَن هذهِ الأُمّة» .

وأخرج عبد الرزّاق وغيرُه عنه ـرضي الله عنهـ قال : «ما عمل بها أحدٌ غيري حتى نُسِخَتْ ، وما كانت إلاَّ ساعة : يعني آية النّجوى»[6].

نفاقه الأصلي ، وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدّرة لذلك الوقت لا جرم يُقَدَّر هذا التكليف بذلك الوقت» .

قال الفخر بعد إيراده الكلام الآنف : «وحاصل قول أبي مسلم : أنّ ذلك التكليف كان مقدر بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخاً ، وهذا الكلام حسنٌ ما به بأس ، **والمشهور عند الجمهور أنّه منسوخ بقوله** : ﴿أأشفقتم﴾ ، **ومنهم من قال** : إنّه منسوخ بوجوب الزّكاة» . التفسير الكبير (٢٧٢/٢٩).

وانظر في ذلك أيضاً : أحكام القرآن لابن العربي (١٧٦١/٤) ، والمحرر الوجيز (٤٥٢/١٥ـ٤٥٣)، وتفسير القرآن العظيم للعز ابن عبد السَّلام (١٤٤٠/٤) ، والجامع لأحكام القرآن (٢٥٧/١٧)، والتسهيل لعلوم التنزيل (٤٢٣/٢)، وفتح القدير (١٩٠/٥).

(١) انظر : الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه (٤٢٦) ، وإرشاد الرَّحمن لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن (١٠٢٦/٢) .

(٢) (٥٢٤/٢) ح(٣٧٩٤) **من حديث مجاهد عن ابن أبي ليلى عن عليٍّ به ، وقال : «هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»** ، وله علّةٌ أخرى أنّ الطبري أخرجه عن مجاهد عن عليٍّ وهذا منقطع ، ولكن له شواهد مرسلةٌ تقويه. انظر : جامع البيان (٢٤٩/٢٣ـ٢٥٠) تحقيق : شاكر. وعزاه السُّيوطي في الدر المنثور (٢٧٢/٦) لسعيد بن منصور ، وابن راهويه ، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

.... الآية﴾ كان عندي دينارٌ فبعته بعشرة دراهم ، فناجيتُ النبيَّ ـصلى الله عليه وسلمـ فكنتُ كلَّمَا ناجيتُ النبيَّ ـصلى الله عليه وسلمـ قدّمتُ بين يدي نجوايَ درهماً، ثُمَّ نُسِخَتْ فلم يعمل بها أحدٌ ، فنزلت : ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ﴾» . وناجاه سعد بن أبي وقّاص ـرضي الله عنهـ بوزن شعيرةٍ من ذهب[3]، ونَاجَاه آخر من الأنصار ـرضي الله عنهـ بآصُع وكَلَّمَه كلمات، ثُمَّ نُسِخَتْ بما بعدها[4].

وقد أخرج ابن أبي شيبة والترمذي[5] عن علي بن أبي طالب ـرضي الله عنهـ قال : «لمَّا نزلت : يَـٰٓأَيُّهَا ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ قال لي النبيُّ ـصلى الله عليه وسلمـ : ما ترى دينار؟، قلت: لا يطيقونه. قال: فنصف دينار ؟، قلت: لا يطيقونه، قال: فكَم ؟، قلت: شعيرة، قال: إنّك لزهيد، قال: فنزلت: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ... الآية﴾ فبيَ خَفَّفَ اللهُ عَن هذهِ الأُمّة» .

(٣) خرّجه الطبراني وابن مردويه ، **قال السُّيوطي**: «سنده ضعيف» . انظر : الدر المنثور (٢٧٣/٦) .

(٤) انظر : النكت والعيون (٤٩٣/٥ـ٤٩٤).

(٥) المصنّف (٣٧٣/٦) ح(٣٢١٢٦) ، وسنن الترمذي (٤٠٦/٥) ح(٣٣٠٠) ، عناية : أحمد شاكر ، **وقال إثره** : «هذا حديث حسن غريب إنّما نعرفه من هذا الوجه» . **قلتُ : وسند هذا الأثر ضعيف** ؛ لأنّه من رواية سالم بن أبي الجعد عن عليّ بن علقمة الأنماري عن عليٍّ ـرضي الله عنهـ . **وعليُّ بن علقمة قال عنه ابن حبان في كتابه** "المجروحين": «منكر الحديث». **وقال عنه البخاري**: «في حديثه نظر» . انظر : الضعفاء الكبير (٢٤٢/٣ـ٢٤٣) رقم (١٢٤٠) ، والمجروحين (١٠٩/٢) رقم (٦٨٣).

(٦) انظر : الدر المنثور (٢٧٢/٦) .
ولم أجده في المطبوع من مصنّف عبد الرزاق ، ولا في مطبوع تفسير ابن أبي حاتم !.

وعلى كلٍّ فالظَّاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ النَّسخ إنَّما وقع بعد فعل الصَّدقة، وحتى ولو لم يصحّ خبر عليٍّ ـرضي الله عنهـ في صدقته قبل مناجاته إلاَّ أنّ الحكمة تقتضي أن يظلّ حكم الآية برهة حتى يتحقّق الغرض من تشريعها وهو الحد من ظاهرة المناجاة للنبيّ ـﷺـ ، ولا يُعَكِّر على هذا الفَهم قوله : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ ﴾، فإنّه ليس قطعيّ الدّلالة على أنّهم ـرضي الله عنهمـ لم يقدّموا كلّهم تلك الصّدقة قبل المناجاة ، وإنّما هو «خطابٌ لمن وَجَدَ ما يتصدّق به ولم يفعل، وأمّا مَن لم يجد فقد تقدّم الترخيص له»[1]،وإذا تطرّق الاحتمالُ وَهَى شأنُ الاستدلال .

قال الشَّوكَاني ـ رحمه الله ـ : «وقد اسْتَدَلَّ بهذه الآية مَن قال: بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل . وليس هذا الاستدلال بصحيح ؛ فإنّ النّسخ لم يقع إلاَّ بعد إمكان الفعل ، وأيضاً قد فعل ذلك البعض ، فتصدق بين يدي نجواه»[2].

والخطاب في قوله : ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ... الآية﴾ لطائفةٍ من المؤمنين قادرين على تقديم الصَّدقة قبل المناجاة، ولكن شَقَّ عليهم ذلك، أو ثقل عليهم . والاستفهام مستعملٌ في اللَّوم على تجهّم تلك الصّدقة مع ما فيها من فوائد كثيرة لنفع الفقراء وإصلاح شأنهم.

ومعنى ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ : أخفتم من ذهاب المال في الصّدقة، أو من العجز عن وجود ما تتصدَّقون به، فإذ لم تفعلوا ما أُمرتم به، وتاب الله عليكم فقبل عذركم ، ورخَّص لكم في أن لا تفعلوا، فلا تفرّطوا في الصّلاة والزّكاة وأفعال الطّاعات التي هي قواعد شرعكم دون ما كنتم قد كلّفتم من الصَّدقة عند المناجاة.

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : «وجملة : ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ معترضةٌ ، والواو اعتراضية ،وما تتعلّق به "إذ" محذوفٌ دلَّ عليه قوله : ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقديره : خفّفنا عنكم وأعفيناكم من أن تقدّموا صدقة قبل مناجاة الرّسول ـﷺـ ، وفاء ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ عاطفة على الكلام المقدّر ، وحافظوا على التكاليف الأُخرى ، وإقامة الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، وطاعة الله ورسوله ، أي : فذلك لا تسامح فيه ، قيل لهم ؛ لئلا يحسبوا أنّهم كلّما ثقل عليهم فعلٌ مما كُلِّفوا به يُعْفَونَ منه ، وإذ قد كانت الزّكاة المفروضة سابقةً على الأمر بصدقةِ التّجوى على الأصحّ كان فعل ﴿ وَءَاتُواْ ﴾ مستعملاً في طلب الدَّوام مثل فعل ﴿ فَأَقِيمُواْ ﴾»[3].

وقال الشَّيخ ابن سعْدِي ـ رحمه الله ـ : «ثُمَّ لمَّا رأى ـ تبارك وتعالى ـ شفقة المؤمنين ومشقّة الصَّدقات عليهم عند كلّ مناجاة سهّل الأمر عليهم ، ولم يؤاخذهم بترك الصّدقة بين يدي المناجاة ، وبقِيَ التعظيم للرسول والاحترام لم يُنسخ ؛ لأنّ هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنّما المقصود هو الأدب مع الرّسول والإكرام له ، وأمرهم ـ تعالى ـ بأن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها ... »[4].

وبقوله : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ـ وما يُلحظ فيها من التحذير البليغ للمؤمنين من التفريط في طاعة الله ورسوله ـﷺـ ، وأنَّ «العبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان ، فيعلم ـ تعالى ـ أعمالهم وعلى أيّ وجه صَدَرَت ، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم»[5] ـ يختتم السِّياق القرآني الحديث عن جولةٍ هامّةٍ من جولات سورة المجادلة بَيَّنَ فيها الشّارع الحكيم لوناً معتبراً من الآداب المنشودة بحضرته ـﷺـ ، لفت لها نظر الصَّحابة الأطهار، ورسَّخ في شعورهم آثار ذلكم التوجيه ، وأفاض عليهم بعدُ بالرّحمات المتتابعات ، كونه رفع عنهم الحكم وأبقى لديهم الآية تُتْلَى إلى قيام السّاعة كلّما تلوها في زمانهم استشعروا تلك الأيادي عليهم من عند ربهمّ الأكرم ـجل جلالهـ ، وكذا كلّ من أتى بعدهم من إخوانهم المؤمنين إلى قيام السَّاعة اذّكَروا هاتيك التفحات الزكيات على أسلافهم الكرام ـرضي الله عنهمـ أجمعين.

الخاتمة:

وقد عزاه السيوطي أيضاً لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

(١) فتح القدير (٥/١٩٠) .

(٢) فتح القدير (٥/١٩٠) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/٤٧) .

(٤) تيسير الكريم الرَّحمن (٨٤٧).

(٥) تيسير الكريم الرَّحمن (٨٤٧).

بعد هذه الدّراسةِ الوجيزةِ لتلك الجُزئية من ذلكم الموضوع الكبير بَانَ الآتي :

- القرآن الكريم خيرُ معلّمٍ للأُمّة القيم الفُضْلى ، والآداب العليا ، وهو المورد العذب الزُّلال الذي ينبغي أن تقف عليه الأجيال المؤمنة تنهل منه ، وتطبق أحكامه ، وتَتَمَلَّى حِكَمَه، ففيه الخير لها والرّشد، وهو الضّابط لها في كافّة السّلوكيات والآداب .

- إيمان المؤمن بالرُّسل والأنبياء على جهة الإجمال والتفصيل هو الباعث له على إعطائهم ما يجب لهم من التوقير ، والاعتراف لهم بالفضل والخيريّة، ومراعاة الأدب معهم .

- عِظَم تأثير القرآن الكريم في نفوس الصّحابة الكرام ﷺ الذين وجّههم النصُّ القرآني للحال الأليق بشأن النبيّ ﷺ ، في كافة أوجه المعاملة معه ﷺ ، وأدب الخطاب على جهة الخصوص ، وكيف أنّهم ﷺ سارعوا للامتثال الأقوم؛ ومن ثَمَّ أثنى عليهم القرآن إثْرَ ذلك.

- في خضم تلك التوجيهات الآتية في أدب الخطاب يظهرُ نَهْيُ الشَّارع الحكيم أتباعَ هذا الدّين الحقّ عن التأثّر بسلوكيات مَن خابَ وضلَّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا!.

- التأدب مع النبيّ ﷺ في الخطاب يَسْتَصْحِبُهُ المؤمن حتى بعد وفاته ﷺ، من حيث توقيره وإجلاله واحترامه: واصفًا إياه بالنُّبوة والرّسالة ، وكذا الصَّلاة عليه ، وخفض الصَّوتِ عند سماع حديثه، وكذا عند قبره، وترك تقديم أراء الرّجال على قوله وحُكْمِه وسُنَّته ﷺ .

على أنّه يحسن في ختام هذا البحث الإشارة إلى توصيتين اثنتين هما:

- خيرُ ما يُبَلِّغُ به العالَمُ سيرة هذا النبيّ الأكرم ﷺ، فبها تُصَحَّحُ الصّورة التي رسمها له الأعداء ، ويُثْبَتُ للبرية أنّه ﷺ هو الأنموذج الحقّ الذي جعله الله ـ تعالى ـ ميزانا للعدالة والرّحمة والإنسانية والخيريّة، وأنَّ موقفَ الصّحابةِ ﷺ معه ، وأدبَهم تُجَاهَه قولاً وفعلاً ومعايشةً دليلٌ على نبوّته ، وصدقه في رسالته، ومن ثَمَّ فَتَبَنّي جهاتٍ رسميةٍ وخيريّةٍ مشاريعَ متنوعةً في هذا الباب هو التطبيق الفعلي للرّد على حملات التشويه والتزييف التي تُحَاك ضد شخصه الكريم ﷺ حينا إثر حين .

- التفسير الموضوعي ميدانٌ رَحيبٌ للقيام ببعض الواجبات قِبَالةَ هذا الرّسول العظيم ﷺ، وهو زاخرٌ بالحديث عنه : شخصا وزوجا وأبا ومُصْلِحَا ومُعَلّمًا وقائدا وداعيا وغيرها من الأوصاف التي قامتْ به ﷺ؛ ومن ثَمَّ فلن يعجز البحثة في التفسير الموضوعي على جهة الخصوص السّبل أن ينتزعوا من كتاب ـ تعالى ـ موضوعاتٍ ذات مضامين قيّمة بهذا الصّدد، ومَن فتَّش وَجَد!.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات ،،،

المراجع

أبو حيّان الأندلسي ، مُحَمّد بن يوسف ، البحر المحيط ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي مُحَمّد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١ ، ١٤١٣هـ .

أبو داود السِّجستاني ، سليمان بن الأشعث ، سنن أبي داود ، تحقيق: مُحَمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

أبو السُّعود العمادي، مُحَمّد بن مُحَمّد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، عناية : عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١٩هـ.

الأبجموري، عطية الله بن عطية، إرشاد الرحمن لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن ، عناية : مقداد فريوي ، ود: كريمة سوداني ، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم "وحدة علوم القرآن" ، ط١، ١٤٣٢هـ .

الأصفهاني ، الرّاغب ، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، والدار الشّامية، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ .

الألباني ، مُحَمَّد ناصر الدين ، إرواء السَّبيل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي ، ط٢، ١٤٠٥هـ.

الألباني ، مُحَمَّد ناصر الدين، تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ .

الألباني ، مُحَمَّد ناصر الدين ، صحيح أبي داود ، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع ، الكويت ، ط١، ١٤٢٣هـ .

الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ .

الألوسي، محمود البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني، اعتنى به : علي عبد الباري عطيّة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ .

البخاري ، مُحَمَّد إسماعيل ، صحيح البخاري، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، ط٣، ١٤٠٧هـ .

البخاري ، مُحَمَّد إسماعيل، صحيح البخاري، دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ .

البغوي ، مُحَمَّد بن الحسين بن مسعود ، معالم التنزيل، تحقيق : خالد العك ، ومروان سوار، دار المعرفة ، بيروت ، ط١، ١٤٠٦هـ .

البقاعي ، إبراهيم بن عمر ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور، تحقيق: عبد الرزّاق مهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤١٥هـ .

البلخي ، مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق : أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤٢٤هـ .

البيهقي ، أحمد بن الحسين ، سنن البيهقي الكبرى،تحقيق:مُحَمَّد عبد القادر عطا،مكتبة دار الباز،مكة المكرمة،١٤١٤هـ.

البيهقي ، أحمد بن الحسين ، شعب الإيمان، تحقيق : مُحَمَّد السَّعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١٠هـ .

ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن مُحَمَّد ، تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصَّحابة والتابعين، تحقيق: أسعد مُحَمَّد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، ط٣، ١٤٢٤هـ .

ابن أبي شيبة ، عبد الله بن مُحَمَّد ، مصنّف ابن أبي شيبة ، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرّشد ، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ .

ابن جزي الكلبي ، مُحَمَّد بن أحمد ، التسهيل لعلوم التنزيل ، اعتنى به : مُحَمَّد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ .

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي ، زاد المسير في علم التفسير ، عناية: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١٤هـ .

ابن حبان البستي، مُحَمَّد، المجروحين، تحقيق: محمود زايد، دار الوعي، حلب ، بدون تاريخ طبع .

ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن شهاب الدين ، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم،تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٢هـ.

ابن عاشور : مُحَمَّد الطّاهر ، التحرير والتنوير ، دار سَحنون ، تونس، بدون تاريخ طبع .

ابن عبد البر النمري، يوسف بن عبد الله ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، تحقيق: مصطفى العلوي ، ومُحَمَّد البكري، مؤسسة قرطبة ، مصر ، بدون تاريخ طبع.

ابن عبد السَّلام، العز، التفسير العظيم "تفسير القرآن العظيم" ، تحقيق : قسم البحث العلمي في دار النور المبين للدراسات والنشر، عمان ، الأردن، ط٢، ١٤٣٣هـ .

ابن العربي، مُحَمَّد بن عبد الله، أحكام القرآن ، تحقيق : علي مُحَمَّد البجاوي، دار الجيل، بيروت .

ابن عطية الأندلسي ، عبد الحق بن غالب ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق: المجلس العلمي بفاس ، ١٣٩٥ـ١٤١١هـ .

ابن قيم الجوزية ، مُحَمَّد بن أبي بكر ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط٤، ١٤٢٥هـ .

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، السّيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٧١م .

ابن كثير، إسماعيل أبو الفداء ، تفسير القرآن العظيم، مؤسسة الرّيّان ، بيروت ، ط٤، ١٤١٨هـ .

الترمذي ، مُحَمَّد بن عيسى ، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

الترمذي، مُحَمَّد بن عيسى، سنن الترمذي ، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

التميمي: مُحَمَّد بن خليفة بن علي ، حقوق النبي ﷺ على أُمّته في ضوء الكتاب والسّنّة، أضواء السّلف ، الرياض ، المملكة العربية السّعودية ، ط١، ١٤١٨هـ .

الجصاص ، أحمد بن علي ، أحكام القرآن، عناية: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ .

الحاكم النيسابوري، مُحَمَّد بن عبد الله، المستدرك على الصّحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ .

الحرّاني ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، الصّارم المسلول على شاتم الرّسول، مطابع الحرس الوطني، بدون تاريخ طبع .

الحربي، حسين بن علي، قواعد الترجيح عند المفسرين ، دار القاسم ، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ .

الحكمي ، حافظ بن أحمد ، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأُصول، تحقيق : مُحَمَّد صبحي الحلاق ، دار ابن الجوزي ، ط١، ١٤٢٠هـ .

الحليمي : الحسين بن الحسن ، المنهاج في شعب الإيمان، تحقيق : حلمي مُحَمَّد فوده ، دار الفكر .

الحنفي ، علي بن أبي العز، شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر ، طبع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، الرياض، ١٤١٨هـ .

الدار قطني، علي بن عمر، سنن الدار قطني، تحقيق: عادل عبد الموجود ، وعلي مُحَمَّد معوض، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ .

الدّارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن ، سنن الدّارمي، تحقيق: فواز زمرلي، وخالد العلمي، دار الكتاب العربي ، ط١، ١٤٠٧هـ ، مذيلة بأحكام حسين سليم أسد على الأحاديث .

الذّهبي ، مُحَمَّد بن أحمد، سير أعلام النبلاء ، عناية : شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١١، ١٤١٩هـ .

الرّازي ، مُحَمَّد بن أبي بكر ، مختار الصِّحاح، عناية : يوسف الشيخ مُحَمَّد ، المكتبة العصرية، بيروت، ط٣، ١٤١٨هـ .

الزّجّاج، إبراهيم بن السّري ، معاني القرآن وإعرابه، عناية د : عبد الجليل شلبي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ .

الزّمخشري ، محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، عناية : عادل عبد الموجود ، وعلي معوض ، مكتبة العبيكان ، ط١، ١٤١٨هـ .

الزّهري ، مُحَمَّد بن سعد ، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ، بدون تاريخ طبع .

السّعدي ، عبد الرحمن بن ناصر ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عناية : عبد الرحمن بن معلا اللّويحق ، مؤسّسة الرّسالة ، ط٤، ١٤٢٦هـ .

السّفاريني الحنبلي ، مُحَمَّد بن أحمد ، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية ، مؤسّسة الخافقين ومكتبتها ، دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ .

السّيوطي،عبد الرحمن بن أبي بكر،الدر المنثور في التفسير المأثور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

السّيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، لباب النقول في أسباب النزول ، عناية : حسن تميم ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط٧، ١٤١٠هـ .

الشّعراوي، مُحَمَّد متولّي، تفسير الشّعراوي ، راجعه د: أحمد عمر هاشم، نشر دار أخبار اليوم ، ط١، ١٩٩١م .

الشّنقيطي ، مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، عناية : مُحَمَّد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ .

الشَّوكاني ، مُحَمَّد بن علي ، فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التفسير ، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٨٣هـ .

الشَّيباني، أحمد بن حنبل، المسند ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

الشَّيباني، أحمد بن حنبل، المسند، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ طبع .

الصَّنعاني ، عبد الرزاق بن همام ، المصنف ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

الطَّبراني ، سليمان بن أحمد ، المعجم الكبير ، تحقيق: أحمد السّلفي، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ .

الطبري ، مُحَمَّد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق : أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٢٠هـ .

الطبري ، مُحَمَّد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ .

العُقَيلي المكي، مُحَمَّد بن عمرو، الضعفاء الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١.

الفخر الرّازي، مُحَمَّد بن عمر، مفاتيح الغيب ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣.

الفراء ، يحيى بن زياد ، معاني القرآن، تحقيق الدكتور: عبد الفتاح شلبي ، بدون معلومات طبع .

الفيروزآبادي ، مُحَمَّد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢، ١٤٠٧هـ .

القرطبي الأنصاري ، مُحَمَّد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : عبد الرزّاق المهدي ،دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ .

القزويني ، مُحَمَّد بن يزيد بن ماجه، سنن ابن ماجه ، تحقيق : مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي دار الفكر.

القشيري ، مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم، تحقيق : مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ طبع .

القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة ، بيروت .

قطب ، سيد ، في ظلال القرآن، دار الشّروق، بيروت، ١٣٩٦هـ .

القيسي ، مكي بن أبي طالب ، الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أُصوله واختلاف النّاس فيه، تحقيق الدكتور : أحمد حسن فرحات ، دار المنارة ، جِدَّه ، ط١، ١٤٠٦هـ .

الماوردي البصري، علي بن مُحَمَّد بن حبيب ، النكت والعيون ، راجعه وعلّق عليه : عبد المقصود ابن عبد الرحيم ،نشر : مؤسسة الكتب الثقافية ، ودار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١٤١٢،١هـ .

المزيني، خالد بن سليمان، المحرر في أسباب نزول القرآن، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ .

المنتجب الهمداني، حسين بن أبي العز ، الفريد في إعراب القرآن المجيد ، تحقيق : فهمي النمر ، وفؤاد مخيمر ، دار الثقافة، الدوحة.

النَّووي ، يحيى بن شرف ، رياض الصّالحين ، تحقيق: مُحَمَّد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي، بيروت .

هوساوي ، عبد الرحمن، منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول -ﷺ- وتكريمه ، دار الذخائر ، المملكة العربية السعودية ، ط١، ١٤١٦هـ .

الهيثمي ، علي بن أبي بكر، مجمع الزَّوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث ، القاهرة، ودار الكتاب العربي ، بيروت، ١٤٠٧هـ .

الواحدي ،علي بن أحمد ، أسباب نزول القرآن، تحقيق : كمال بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

الواحدي النيسابوري، علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، تحقيق : مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

The Attitudes of

the Secondary Students in the Region of Hail towards Contemporary Educational Concepts

D:Mohammed Nasir Jaddoh .

Abstract

Praise be to Allah, peace and blessings be upon the last prophet. Prophet Muahmmad has been given rights to be reserved by his community for guiding them to the right path of their God. These rights are abstract, concrete and ethical. The prophet's contemporaries (Sahaba , his companions) had observed them , and so should those who have not witnessed him in his life.

This research manifests a part of those rights entitled to the Prophet enjoined earlier on his community (the Sahaba) or later on following community who have followed their footsteps regarding how to address the Prophet. The researcher tries his best to derive evidences from the chapters of the Quran that bear witness to the way of addressing the prophet in the manner, features, and implications in different walks of life .

It is also a serious attempt to accomplish an objective Quranic study in which the techniques and schemes of an objective interpretation are employed in tackling the Quranic subject matter .

After having finished with this brief study of that portion, various aspects have appeared to the researcher, namely the great effect of the Quran on the emotions of the venerated Sahaba (companions of the prophet) who were told by the Quranic context to adopt the polite manner when behaving universally with the prophet.Another aspect is that of the polite etiquette conducted in particular on addressing the prophet, and how they hastened to wholly comply with the Quranic instructions..

Key words:

The word (Listen to us), the frequently repeated requests, the asking of mutual conferences , the raising of the voice, the rushing forward in the presence of Allah and His prophet, the politeness of the believers,the belief in apostles , Al-Maida chapter (table spread with food), the chapter (of that who disputes) .